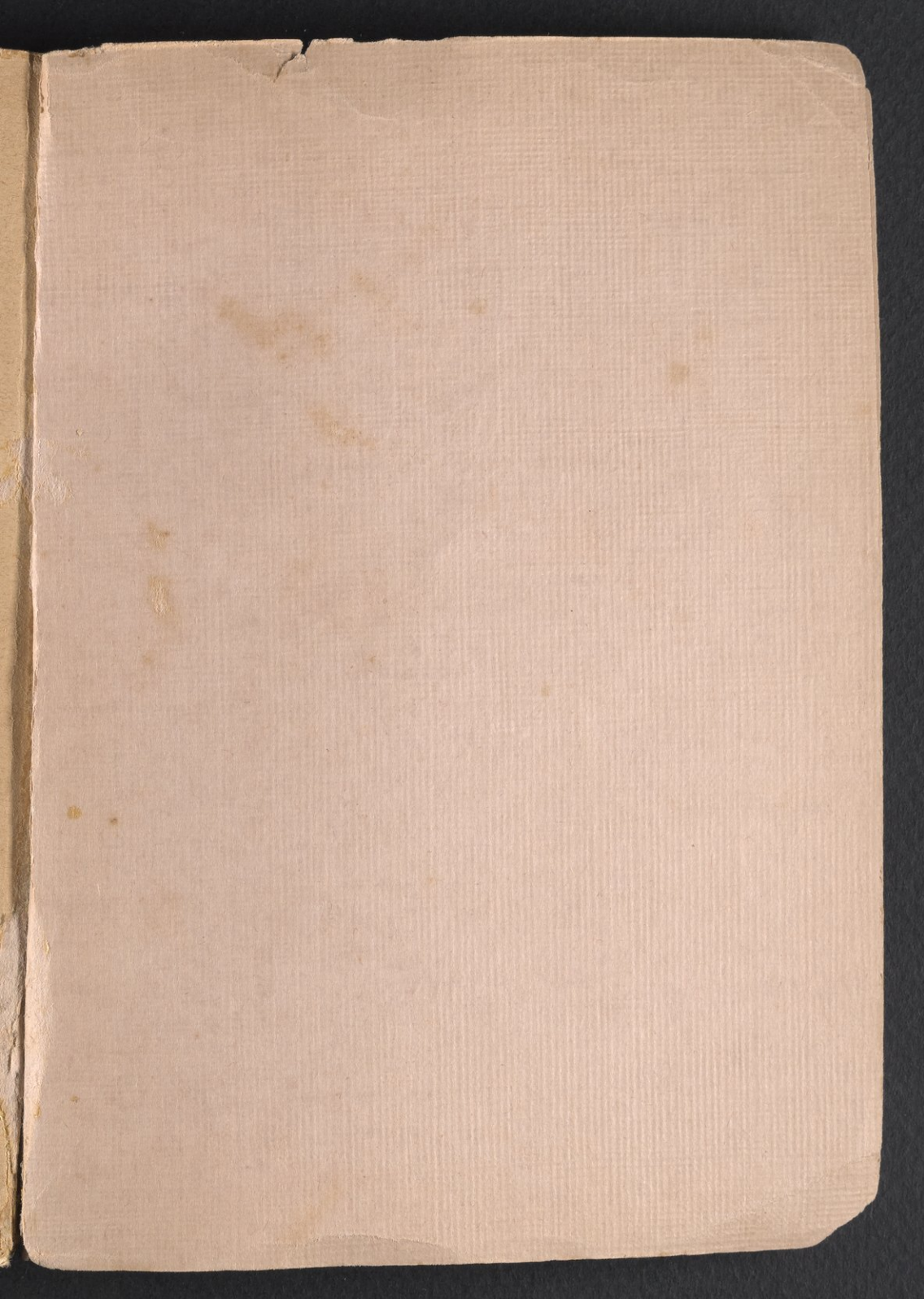


مناجاة

تأليف
المهاجر حسين عفيف

١٩٣٣



مناجاة

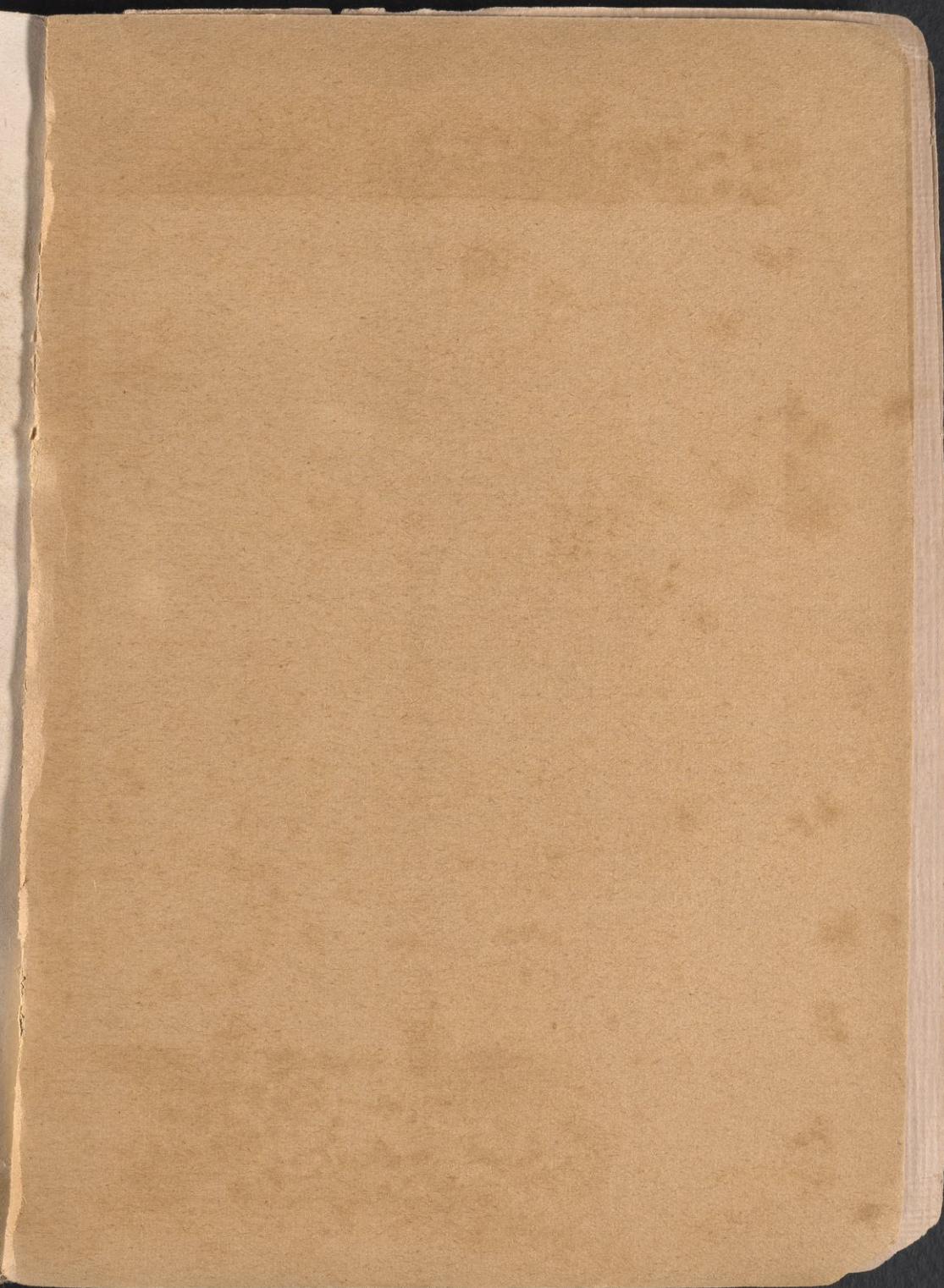
قطع متخيَّلة في
تسلسل روائى

تأليف
المحامى حسين عفيف

الثمن ٥ قروش صاغ

ملتزمة النشر مكتبة النهضة المصرية
لصاحبها حسن محمد
بشارع المدايق أمام جريدة الاهرام بالقاهرة

مطبعة د. سيادة بمصر

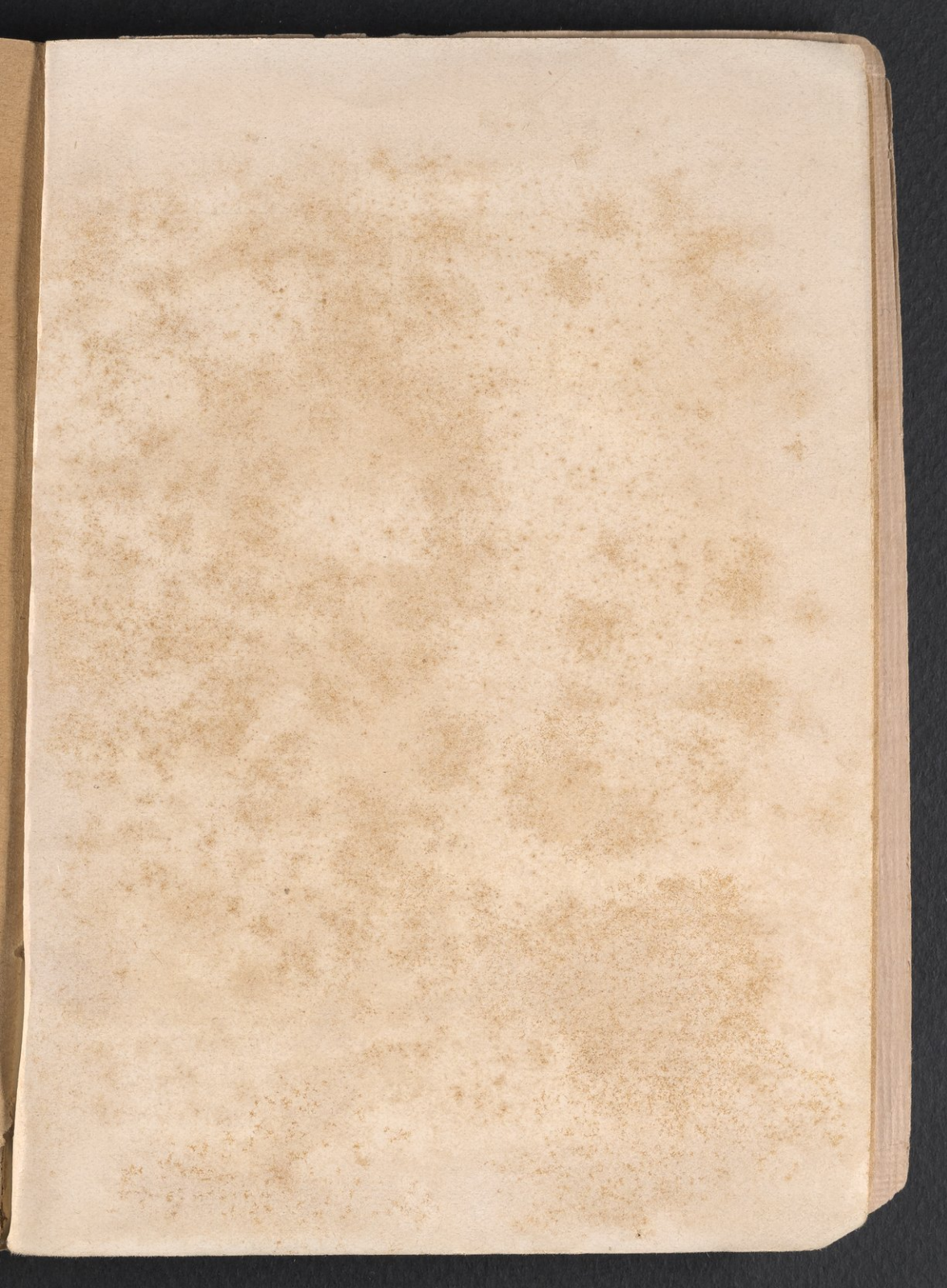




مطبعة
« بول باریسه »

مناجاة

تصویر الرسام
« شعبان زکی »



اهراء

إلى رعاة الغنم ، أهدي كتابي .

مقدمة

وبعد فهذه قطع متخيَّلة ، تشبه في تسلسلها
الرواية ، تتضمن تحليلات عامة ، في قالب غرامى ،
وأسلوب من النثر الشعري .

١ طُموح

ما هويتك لذاتك يا حبيبتى وإنما لأنك تحملين
قَبَساً من ذلك الجمال الذى أعبدته ولا أعبد
سواه . وإذْ كان الجمالُ يا حبيبتى موزَّعاً بين
الحسان فقد وزعتُ ما بين الحسان قلبي .

أنا عالميُّ الذاتِ أحمل الحنانَ لكلِّ حيٍّ ،
وأضمر الحب لكلِّ جميل ، وأود لو أن قلبك دَانَ
في الغرام بديني . فإذا نازعتنا غيرَةٌ دفينَةٌ في قلوبنا
فلنُوطِن على احتمالها النفسَ أو نغسلها على مرِّ
السنين بالدموع .

ولئن خانتنا الصبرُ الجميل فحبذا الألم يا حبيبتى في
سبيل الطُموح . مزيجٌ من الحزن والفرح الحياةُ

فلتكن مزيجاً من الدموع والابتسام حياتنا .
وأنت يا عينُ انطلقى فى إثر الجمال بسناه اکتحلى
وبأساه ادمعى . ولتكن عواصف لا تعرف الخود
نفوسنا ، وحاشانا نحن الأحياء أن نخلد إلى الهدوء
فالهدوء الموت .

إن من شرارتى السرور والألم ما تدفّق فينا
من كهرباء الحيوية ، فليكن من السرور والألم الغذاء
العبرى لأرواحنا .

٢

تقلب

إنك تحملين الجمّ الكثير من الأغراء ، ما من
هذا يا حبيبتى شك ، ولكننى على الرغم من ذلك
أحمل بقلبي من الحب أكثر مما عندك من الجمال .

شدَّ يازرقاء العينين ما يخفق اليوم قلبي للسواد
من العيون ! خالستني من ليايله شُموسٌ فراح
ينشق من بريقها بريقٌ للصباة في قلبي . وعبثاً
ما حاولتُ في سبيل الوفاء أن أقاوم ، فاستسلتُ
مرغماً ، ولكنني مع ذلك لبثت طول الليل أترنم
بهذا الانهزام اللذيذ .

أحائدة أنت يا حبيتي إذن عن الوفاء لمن بدأ
بالخيانة عهدك ؟ أجل ، وما كنتُ لألومك في ذلك
فأكون لقلبك البريء ظلوماً . ولكن هل يطفى
الانتقامُ لوعةً فيك للحب متأججة !

ستعصف الغيرةُ بقلبك وقلبي ، وسنشهد الليالي
الطوال نذرف الحار الغزير من الدموع ، ولكن
أنتي للقلب الشارد الجروح نحو الجمال أن تستوقفه
توسلاتُ الدموع الجارية ! سأحبك ما ترددتُ

فِي أَنْفَاسِ الْحَيَاةِ ، وَلَكِنْ قَلْبِي النَّزَّاعُ بِطَبِيعَتِهِ إِلَى
الظَّمْعِ وَالْحَرِيَةِ سَيَّابِي إِلَّا أَنْ يُشْبِعَ أَهْرَاءَهُ مِنْ
دُمَى الْجَمَالِ الْمُتَعَدِّدَةِ .

فِي فَوَادِي مُتَسَّعَةٍ مِنَ الْحُبِّ عَلَى قَدَرِ مَا فِي
هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنْ حَسَنٍ . فَهَلَّا أَطْفَأْنَا يَا حَبِيبِي
نِيرَانَ الْغِيَرَةِ فِي قَلْبِنَا ، وَرَحْنَا نَهْمَ بِحُبِّ الْجَمَالِ أَيْنَمَا
كَانَ مُتَقَلِّينَ عَابَثِينَ كَمَا تَتَنَقَّلُ النُّحْلُ الْحَامِئَةُ بَيْنَ
الزُّهُورِ ! إِنَّمَا نُوْمِنُ بِالتَّنْقُلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ
تَفْتَنُنَا الْعَيُونَ الزُّرْقُ وَالْعَيُونَ السُّودُ فِي آنٍ وَاحِدٍ ،
فَلِهَذَا نَرْضَى لِأَنْفُسِنَا بِنَصِيبٍ مِنَ الْجَمَالِ أَقَلٍّ مِمَّا
بِقُلُوبِنَا مِنَ الْحُبِّ !

لَوْ كَانَتْ فِي وَسْعِكَ أَنْ تَحْوِيَ الْجَمَالَ كُلَّهُ
لَأَوَّلَيْتُكَ مِنْ فَوَادِي الْحُبِّ كُلِّهِ ، وَلَكِنَّا إِذْ
نَفْتَرِضُ فِي الْجَمَالِ الْمُحَالِ إِنَّمَا نَرْجُو مِنْ

غبرة

شَتَّانَ بَيْنَ قُبُلْتِهِ عَلَى شَفْتَيْكَ وَنَارَهَا فِي قَلْبِي !
كَانَ الطَّرِيقَ مَقْمَرًا ، وَقَدْ اتَّخَذْتُ لِنَفْسِي مَحَبًّا بَيْنَ
لِفَائِفِ الشَّجَرِ ، عِنْدَمَا أَقْبَلْتُمَا مُتَخَاصِرَيْنِ فَوَدِدْتُ
لَوْ أَغْمَضُ الْمَوْتَ عَيْنَيَّ وَأَنْتِي لَا أَرَاكِ .

وَمَا هِيَ إِلَّا بَرَهَةٌ حَتَّى تَعَانِقْتُمَا ، فَجَرَتْ رُوحَاكِ
تَنْسَابَانِ الْوَاحِدَةَ فِي الْآخَرَى ، وَقَدْ لَمَعَ فِي عَيْنَيْكِ
مِنْ فَرَطِ الْحَيَاةِ وَمِيزُ عَجِيبٍ . أَمَّا أَنَا ، فَكَانَتْ
رُوحِي تَنْسَابُ أَيْضًا وَلَكِنْ نَحْوَ الْفَنَاءِ حَتَّى أَنْتِي لَقَدْ
ذَقْتُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بَعْضَ الْمَوْتِ .

وَلَقَدْ بَكَيْتُ وَأَسْرَفْتُ فِي الْبُكَاءِ وَعَهْدِي بِيْ

يا حبيبتى البخيلُ بدمعي . ذلك أني أنا الذى
حرصتُ على جمع القلوب قد عزّ على أن يفلت
قلبك من يدي . وحسبتُ فى الأمكان أن أغدر
فأضيع منك وتبقى فتبقى لي .

أنايُّ ما أنت يا قلبُ فى الهوى لأنك فيه
طماعٌ غيور ! فهلاّ اقتديت بالقناعة نفسك مخافة
أن تتكالب عليك أيدي الهموم فتبلى ! سأضحى من
أجل الغيرة بالطمع وأعود إليك تائباً كما تعودى
لى يا حبيبتى وحدى .

٤

ميرة

أواه من غيرةٍ قاتلة فى فؤادى ومن طمعٍ
فيه قاتل !

كلما تعاهدنا على الاخلاص اتقاء الالم ساقني نحو
الغريب من الجمال 'مجموح' ، فاذا لاحت لى حسناء
غيرك سكنت نفسى الحائرة الى الحنين واسلمت
للحب الجديد قلبي .

هيات أن يخلص للفرد من أخلص للجماعة إلا
أن يضحى في سبيل ذلك تلك . إنما الايثار
للفرد بالافراد الجحود ، وأنا حبيب الحسن أينما
كان وحاشى أن أبيع بالجميل الجمال .

٥

استقرار

لمّا رأيتك آمنتُ أن الجمال لك وحدك
فمنحتك من فؤادى الحبّ وحـدك . وآمنتُ أنما
الحبّ الايثارُ وأن من أخلص للجماعة لم

يخلص لأحد .

لكم خادعى قلبى فحسبتنى قد ذقتُ قبلك
الهوى ، فما أن عرفتكَ حتى أيقنت أن ما كان بى
لم يكن حبا وإنما كان نزعةً تلتبس بالحب وليست
منه فى شىء .

هى صورتك أنت تلك التى كانت مرسومة فى
خيالى منذ الحداثة ، فلما أن ضللتك ضللتُ عن
فهم الجمال فرحتُ أهيم بالغيد من كل لون وكنت
فى هيامى جهولا دعيّا .

والآن يا حبيبتى وقد وجدتُك فأنى أقسم
بجمالك الفريد أن أول عهدى بك هو أول عهدى
بالهوى . وأنى لم أكن فيما مضى عالمى الذات وإنما
كنت سىء الاختيار .

هوى

أهو طيفك أنت ذلك الذي كان يلوح لى في
 الأحلام من عهد الصبا ا ضالَّتى التى أفنيتُ في
 البحث عنها السنين وكنْتُ أجهلها وكنْتُ أعرفها ا
 لكل قلبٍ مثالٌ من الجمال تائهٌ في عالم الجمال
 فإن اهتدى إليه هداه الهوى وإن ضلَّه ضلُّ في
 الهوى . وقد كنْتُ أنت مشالى الذي ابتدَعتهُ في
 الخيال أمانى الفؤاد فجعلتُ منه للجمال آيةً وللحياة
 الآية غاية .

لك السهاد في الليل يا حبيبتى إذنْ ولك التهنيدات
 وحدك والدموع . هاكِ قلبى خذيه كعهده طيفك به
 هائماً خافقاً لا تكاد تهجع النار فيه .

والوداع الوداع يا حبيباتي الأوليات فما أنا
لكنّ بعد اليوم ولا أنتنّ لي .

٧

النظرة الأولى

لم يكده يمسّني سحرُك حتى أصابني منه مَسٌّ
من الحب . فلقد نزل بي هواك يا فتاة اللحظ
نزول القدر . وكانت نظرة ألفتها ، لم أفق بعدها
إلاّ على خفقات قلبي !

وصحوتُ ، فإذا بنور عينيك قد استحال في
الجوانح نارا ، وورد شفّيتك قد غدا في الفؤاد
لهيبا !

ليس حبّا ما أمهل القلب أو جمالا ما قاومت
سناه العيون . ولقد رضينا ما ارتضاه القضاء وفي

سبيل الجمال يا قلبُ ما تلاقى في الهوى .

٨

الحب المفضل

لو لم يحبك قلبي لأول وهلة كما صدقته إن
هو أجبك بعد حين . لأنه وإن يكن فؤادي
سيخفق ، وأنفاسي ستضطرب ، ونفسي ستستسلم إلى
عبث الأحلام ، إلا أن هذه المظاهر وإن انطوت
على حب لا يمكن إلا أن تكون مفتعلة .

ذلك أنها إذ تقوم لا تقوم على أساس من
الاعجاب وإنما على أساس من الألفة ، والحب
لا يكون صادقاً إلا أن يكون الإعجاب أساسه ، لأن
الحب ليس إلا الإعجاب قد اعترته حمى .

كم من وجوه نراها فلا نحفل بها حتى إذا

ما ألفناها توسمنا فيها الجمال الذي ليست منه على
شيء . وما كانت الوجوه لتغير ، ولكن هي العيون
تضلها العادة فتخدع ، فما أن تدمن النظر إلى شيء
حتى تتجرد من أهلية الحكم عليه .

فإذا ما رحنا كتدلكه في غرامنا الزائف ونبنى
على أوهامه القصور ، فياويلنا إذا آن للعين المخدوعة
أن تثوب وللقلب الثائر أن يهدأ . إننا إذ ذاك قد
نبعث على بقية من الشباب لنسوق بها أغنية الحب
من جديد فلا نجد . ونذكر ، ولكن في آخر
العمر ، أن ليس هناك أئمن من شباب لا يعود
في حياة لا تتكرر .

مَلْنَا الأعلى فِي الْجَمَالِ

إِنِّي إِذْ عَوَّلْتُ فِي حَبِي عَلَى النِّظَرَةِ الْأُولَى ، إِنَّمَا
عَوَّلْتُ عَلَى الْعَيْنِ مَجْرَدَةً عَنِ الْمُؤَثَّرَاتِ ، وَالْعَيْنِ
لَا تَكُونُ صَادِقَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَجْرَدَةً .

وَمَا كَانَ لِي يَا حَبِيبَتِي وَبَيْنَنَا مَا بَيْنَنَا مِنْ تَمَازُجٍ
وَأَنْسِجَامٍ أَنْ أَسْمَحَ لِنَفْسِي أَنْ تَمْتَحِنَ جَمَالَكَ ، لِأَنِّي
وَلِإِنْ أَكُنْ لَمْ أُرْكَ قَبْلَ الْآنَ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجْهَلَكَ .
لَمْ أَجْهَلَكَ لِأَنَّكَ مِنْذُ ارْتَسَمْتَ فِي خِيَالِي كَأُمْنِيَةِ فَقَدْ
تَمَّ مَا بَيْنَنَا التَّعَارُفُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّا تَتَلَاقَى . فَإِذَا
تَلَاقَيْنَا فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا أَنْ تَبَادُلَ التَّحِيَّةُ بِالْقُلُوبِ ،
وَلَكِنْ أَحَدًا مِنْهُ لَا يَسُوعُ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ الْآخَرَ
مَنْ هُوَ .

مَثَلُنَا الْأَعْلَى فِي الْجَمَالِ صُورَةً مِنْ تَصْوِيرِ
مِيُولْنَا وَعَوَاطِفُنَا فَهُوَ مُسْتَقَرٌّ فِي خَيَالِنَا مِنْذُ الْقَدَمِ .
وَهُوَ وَإِنْ يَكُنْ لَا يَشْمَلُ فِي وَضُوحِ دَقَائِقِ
الْجَمَالِ الَّتِي نَهْوَاهَا إِلَّا أَنَّهُ يَحْمِلُ مِنْهَا تَضَاعِيفَهَا
وَرَوْحَهَا .

وَهُوَ يَظَلُّ فِينَا غَامِضًا مَزْعَرَعًا إِلَى أَنْ يَلْتَقِيَ بِهِ
نَظِيرُهُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، فَمَا يَكَادُ يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ حَتَّى يُظْهِرَ
مَا خَفِيَ مِنْ غَوَامِضِهِ وَيُثَبِّرَ مَا اضْطَرَبَ مِنْ مَعَالِمِهِ .
فَالَّذِي يَنْطَبِقُ مِنَ الْجَمَالِ عَلَى مَثَلِنَا الْأَعْلَى ، هُوَ ذَلِكَ
الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُظْهِرَهُ فِينَا مِنْ أَوَّلِ انْعِكَاسَةِ تَقَعِ
مِنْهُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ فَهُوَ لَيْسَ مَثَلِنَا وَإِنْ
أَوْهَمْنَا فِينَا بَعْدَ بَأَنَّهُ هُوَ .

لانى وربى أنا العابثُ المتقلبُ أصبحتُ أجدُ في
 الوفاء ارتياحاً ولذة . هبى الغدر طبعي فايُّ بقيةٍ من
 جمالٍ قد تخَلَّفَتْ عن حُسْنِكَ حتى يكونَ فيها
 للقلبِ السَّطوحُ مَطْمَعٌ !

أنا منذ تركَّزَ فيكَ الجمالُ قد ركَّزْتُ فيكَ
 يا مناي مطامعي . ولئن يكن قد شاب مني الوفاءُ
 اضطراراً فإن ذلك مما يجعله بالدوام أحرى . ذلك
 أنه يستمد من تفرُّدِكَ بالجمال قابليته للخلود .

هذا العصفور المرح الذي يعبث الآن بالغصون

دونك يا حبيبتى رشاقة وخفة .

إنّ ما انطوت عليه روحك من معانٍ
لَتَتَحَدَّثَ عنها عيناك اللتان تجيدان الكلام بأكثرَ
من لسانك الفصيح . وإنك كَمِثْلُ الغزال في
لَفْتِكَ ، وَلَتُشْبِهُنِ الطير في تَأَلُّقِ مِشْيَتِكَ .

يا أَخْذَاذَةَ الحُسْنِ يا من يسبق جمالك بتوقّده
عيونى ، ما أعجب أن يُومض كالبرق لحظُّك ، وأن
يضىء كالشَّرَر اللّهُمَّاح سحرُك !

كم من مرةٍ حاولتُ أن أتملّسَ من جمالك
فكانت عيونى تعجز عن اللّحاق به فترتد إلى وهى
أخلى ما تكون منه وأظماً ما تكون إليه .

لَأَمْنْتُ يا حبيبتى أن يبنى وبين إدراك نورك
ما بين العيون وإدراك البُروق الخاطفة .

سمراء سوداء الشعر والعينين ولكنَّ سُمُرتها
التي تشبه الليلَ تستحيلُ نهاراً في فؤادي .

ممتشقةُ القوام كالغصن ، ممتلئةُ الساقين في
استدارة ، يتمنى من يراها تخطوان على الأرض لو
يكون التراب الذي يحظى بوقعهما .

همجية كالنَّور في شكلها ، عذبة كالأحلام في
روحها . تشبه الطفلَ اللِّعوب سداجةً ، وتفوق
وثنابَ الطيور رشاقة .

أثار جمالها الوحشيَّ رغبتى ، وحرَّك فيَّ الحنينَ
لفطرتي . فتمنيت لو فررتُ بها إلى منقطع العمران
حيث نحيبا بين أحضان البرارى ونرعى في رُبِّي

الأحراش الغنم .

نطم الزاد من برّي الثمر ، ونفترش الحشائش
في مبيت أو سمر . ونأوى إلى النوم لدى مغرب
الشمس ، ونهب منه لدى تنفّس السّحر .

وأراها وقد توحّشت مع الطبيعة فأرسلت
كالعُشب الطليق شعرها وعرّت من الثياب ساقها
ونحرها ، فيزداد جمالها فتنةً في عيني وحبّها لهما
في فؤادي .

١٣

سوق

ها أنا الآن جالسٌ حيث تقيمين ، وبودي لو
قضيتُ حيث أنا العمر كله !

وها أنا أراك من خلال السياج ، وقد

اضطجعتِ على ناضر العُشْب ، تكسرين الجفن
كالقمر الحالم ، وتمدين ذراعيك كالفجر المثائب .

وها أنا أرى سواد عينيك فأعجبُ للظلام
يبعث نورا . وأرى اللحظ في مقلتيك وقد سقاه
الدلالُ فتورا .

وها أنتِ وقد طوّحَتْ برأسك الأحلام تملين
به إلى الدوحه ... ياليتني كنت الدوحه !

ويحك ياسياجُ لمَ مزَّقْتِ الآن بشوكك
وجهي ! ويلاه ، إن الدم يقطر منه فيخضب
قيصى !

لينك يادم لا تنقطع ! وأنت يا جرح لينك
لا تتدمل ! لأرى فيكما على الدوام غرامى !

آه ، ما أعذب أن أهب نفسى فى سبيلك ! لقد

أحببتك فأحببت الفناء فيك لأنني وددت أن
أكونك .

١٤

كبرياء

إن فتورَ عينيك الذي يُشبهه الوسن قد غيَّبَ
في مُحلِّم الغرام قلبي . ووميض ابتسامتك عندما
لاح كاد يخطف سناه الوهاج بصري . ولهيبة
شفتيك الورديتين كم أحرق لمّا قبلتك في !

لا أبالي بكل ذلك فإني أُمسُّ لذة الحب على
قدر ما أُمُتُّ في الحب نفسي . ولكن حذار أن
تمادى في صدودك فإني وإن بذلت نفسي في سبيل
الجمال لن أبذل في سبيله كبريائي . حياتي قد تكون
عزيزةً ولكن الكبرياء عندي أعزُّ منها .

فمضوع

رحماك يا معذبتى ، إنك قد أذلكتِ كبريائي !
 ما لرأسى كلما هممتُ برفعه أَلَحَّ به الوجد فهو
 إلى قدميك !

عجبتُ أنا الأبىُّ في كل شيء كيف استكانت
 اليوم نفسى إلى الذل في الهوى ! أحقَّ أن ما بنا من
 كبرياءٍ وغرور يتلاشى كله أمام عظمة الجمال فإذا
 بنا نرى السموى في الخضوع إليه ونُحسُّ الحياةَ
 في الفناء فيه !

يا حبيبةً قد سما فوق العالمين جمالك ، ويا
 أمنيةً تطيش أحلامُ القلوب حياالك ، دعيني أذرف
 عند قدميك الدموع عَلىَّنى أستعِضُّ عن لذة الآباء

في الحب لذة الهوان فيه . ولا تضيئي عليّ بما يفرضه
عليّ من الخضوع جمالك ، واذكري أنك جرحت
كبريائي فلا تجرحي ذلتي .

١٦

عبادة

لاموني لآتي عبيدتك وقالوا مُلحدٌ مشركٌ
بالله ! وفاتهم أننا ونحن في الكون حدثٌ إنما
نحن والكون من روح الاله .

فرضاً عليّ ياربي إن أنا عبيدُك أن تشمل
عبادتي الوجودَ وهل في الوجود ربي سواك .

سبحانك ما كَفَرَ بك من آمن بالجمال فيك
ولا آمن بك من كفر بالجمال لأجلك . أعبدك

يا حبيبي والجمالُ يُعَبِّدُ ، فنه أتيناه وله نحياء وإليه
تَووب .

١٧

القمر

أخيالُ حالمٍ ضوءك هذا يا قمر ! فيم يسبح
تفكيرُك وبهمٍ يا مُتَرَى تهمس بك أحلامُك !
دَعْتُكَ ، شحوبك ، ابتسامتك ، إغراقك ، كل هذا
يوحى إليَّ يا قمر بأنك حالم . أيا مُتَرَى غَيْبِكَ
الذي غيَّبني فَهِمْتُ وراء الغيب واستحالت حياتك
نوماً واحساساتك أحلاماً !

كأني بضوءك الباهت طيفٌ بَعَثَتْ به من
هواجس أحلامك بعد أن غيَّب الوسنُ نورَ
عيونك ! وكأني بلونك الممعن في الإغراق تناوبُ

الامل المنبثق كالفجر من غصون خيالك !

أيها القمر هلُمَّ أذِنِي فِي ضَوْئِكَ كِي أُسَبِّحَ
مَعَكَ فِي وادِيكَ وَأَمْزِجْ هُذْيَانِي بِهُذْيَانِكَ . بِي مِنْ
الهُوَى يَا قَمَرَ حَنِينٌ إِلَى الْغَيْبِ وَبُوعِي مِنْهُ نَزْوَعٌ
لِلْغَيْابِ . فَلَا تُنْسَ دُنْيَايَ إِطْلَاقاً وَلَا ضِعْ رَشْدِي
بِتَاتَا كِي يَسْتَحِيلَ وَجُودِي وَهَمّاً وَشَعُورِي إِلهَامَا .

وَلَيْكُنْ فِي سَمَاكَ مَكَانِي . وَلَيْكُنْ مِنْ سَنَاكَ
خِيَالِي . فَأَتِمَّا يَعِيشُ مِثْلَكَ فِي الْغَيْبِ يَا قَمَرَ مِنْ غَيْبِ
قَلْبِهِ الْهُوَى .

١٨

لقاء

هَلْ تَقَابَلْنَا يَا حَبِيبَتِي ، وَهَلْ قَبَّلْتُكَ ! وَهَلْ
حَقَّقْنَا بَعْدَ طَوِيلِ الْإِتِّظَارِ الْمُنَى ! يَا كُنْفُسِي مِنْ

فرحة فوق طاقة نفسى

أنا وإن جفاني النومُ شَمِلُ كالْحالم . تتفتح عيناى
عن طيفك فأخفُ إليك . وأتخيلك إلى جوارى
فافتح ذراعىَّ لك .

دعوتُ من حاضرى أَمسى فعشتُ معك .
وأدْنيتُ من يومى غدى فظفرت بك .

ما الحب إلاَّ أن تتلاقى على الأحلام القلوب .
وما دام قلبك عندى فأنتِ على الدوام معى .

١٩

الوقت

لم يزل بذكرى أَمسٍ عندما التقينا على حافة
الغدير وكان الشفق يحكى فى اللبيب وجنتيك وقلبي .

٢٩

فإذا بالشمس التي أشفقت علينا من عيونها
تتوارى حيال الغيب وقد أسلمتنا إلى الليل الذي
يُرْخى على العاشقين سدوله .

وغابت الكائنات جميعها إلا عن المحبين الذين
يهتك بريق قلوبهم سواد الليل وتعبث أنائمهم
الخافقة بهدوئه . فإذا بالأزهار اليانعة تفتت ثغورها
عن ابتسامة لاذعة ، وإذا بالحشرات القابعة في
جوف الغصون تحدق فينا بعيون كالشرر .

وإذا بالنسيم الخافق يداعب شعرك فتعبث
أطرافه بجفوني ويعطر شذاه أنفاسي . وإذا بالقمر
الغارق في الأحلام يغمرنا بأشعته الفضية فتحملنا
معه إلى الغيب حيث يهذي الأحبة بالهواجس
المستحبة .

وإذا بكبك الهazyء بالحب يتعالى نباحه

نجاةً فيتملكنا الخوفُ من قدوم الرقيب فتنسايين
كالفراشة بين الأزهار وأتسلقُ السياجَ الشائك
وحدي . وإذا بقدمي تعثران في القناة فيلوئهما
الوحدُ ، فاذا أصبح الصباح ضننت بهذه الذكرى
أن أزيلها فاستهدفتُ إلى وابلٍ من النكات
اللاذعة .

يعلم الله يا حبيبي أن رأسي لم يزل مثقلاً
بالأحلام لفرط ما لعب به سحرُك في تلك الليلة .
فكأنني وقد دوختني نشوةُ الهوى لم أزل أكتوي
بسخونة عينيك وأرتوى من رحيق ثغرك . وكأن
أنفاسك الحارة لم تزل تتدفَّق في صدري ونبرات
صوتك الخنون تنساب في أذن .

لقد سرقنا في تلك اللحظة بعض الوقت الذي
طالما يسرقنا . واستطعنا أن نعيش ساعةً لأننا

التقينا في الحب ساعة . في حين يطوي غيرُنا السنينَ
دون أن يمروا ولو لحظة بالحياة .

٢٠

الرسول

إذا حضر الرسول فسأتهد ، وأتهد طويلا .
لأنى لا أعلم ماذا يخبؤه لى القدرُ العاقى بين
شفتيه .

لم أبطأت على أيها الرسول وتركتُ
مهجتي تنتفض من القلق ! إن قلبى كيناديك ، وروحي
كتهبُ بك وتدعوك ، أيها الرسول الذى بين
شفتيك مصيرى .

عد إليّ وخبرنى كيف حالُ الورد فى خدها .
وكيف رأيتَ السنا الدامع فى عينها . وكيف حال

مَقْعِدٌ لَنَا مِنْ يَابِسِ الْعُشْبِ وَسِيَاجٍ ضَمَّنَا فِي
لِيَالِي الْقَمَرِ .

هَآ قَدْ أَقْبَلْتَ أَيُّهَا الرُّسُولُ فَاسْرِعْ ، إِنَّ
رُوحِي كَلَسَبَقْنِي إِلَيْكَ . تُتَرَى هَلْ يَحْمِلُ لِي
نَفْحَةً مِنْ حَبِهَا ؟ تُتَرَى هَلْ يَحْمِلُ لِي شَرَارَةً مِنْ
شَوْقِهَا ؟

مَا هَذَا الَّذِي بِيَدِكَ أَيُّهَا الرُّسُولُ ؟ وَرَدَّةٌ !
إِذَنْ هَاتِهَا . وَمَا ذَلِكَ الَّذِي تَخْفِيهِ ؟ يَا لِرُوحِي !
شَعْرَةٌ ... نَزَعَتْهَا مِنْ رَأْسِهَا !

يَا زَهْرَةً تَحْمِلِينَ فِي شَفَاكَ أَنْفَاسَ الْحَبِيبِ ،
وَيَا شَعْرَةً مِنْ لَيْلِهَا يَنْدَلَعُ اللَّهْيَبُ ، مَكَانُكَمَا الْقَلْبُ
مَشْوَى صَبَابَتِي وَحَبِيبِي .

وَالرَّسَالَةُ أَيُّهَا الرُّسُولُ ، هَلْ أَدَيْتَهَا ؟ وَبِمَ

قوبلت وهل حملتك الحبيبة ردها ؟

بي ارتيابٍ فيما تقول فأيُّ عظيمٍ يا مُرى
من الأخبار تخفيه عني ! بربك بُج لي بالحقيقة
فلكياس عندي أهون من أمان يتبين لي في الغد
أنها كاذبة .

كفي ! فداء ذاتها الروح ، فما أحسب إنساناً
يجرؤ على القسم بها ويحنث . هو الصدق ما تقول
فأعد عليّ روايتك فوالله إن حديثك يسكرني !
صف لي وأطنب ، كيف راحت تعبر عن شوقها ،
وكيف شكت فعل الهوى في قلبها .

وقل لي متى يكون بعد طول النوى تدانينا ،
وعند أيّ ناضرٍ من الربى تلاقينا .

يا رسول ما أكرهك عليّ وما أبيض أيديك

عندي ، لك الشكر ما حيت على جميل
صنيعك .

٢١

انتظار

ها قد أشرفتُ على الحى الذي فيه تسكنين .
النسيم الذي يخفق ، يحمل إلى أنفاسك . والقمر
الذى يسطع ، يتبسّم نورهُ عن طيفك .
ها هي دارك . وها هي حديقتك . وها هو السياج
الذى حياله نلتقى ، كلما سجا الليلُ فوارى في دجاء
العاشقين .

حبّيتي ! هلمّى إلىّ فهأنذا قد جئتُك . يامن
سقاني نورُ عينيكَ من الصباية ناراً ، وأنبتَ
فيّ الوردُ من وجنتيك اصفراراً .

لقد وعدت بأن توافيني مع الليل ... وها هو
الليل قد جنَّ ولما تحضري . ليت شعري ما الذي
جرى حتى تأخرت عني !

آه ما أمر الانتظار بلا أمل ! إن قلبي لا يرتجف
في خفقاته حتى كيوشك أن يهوى ! وأوصالي
لست أخاذل كنبته أعيائها الظماً فال عودها .

حبيتي ! ها نذا أدعوك باسمك لعلك تخفّين
إليّ . حبيتي ! لم لا تسمعين ، إن حببك هو
الذي يناديك !

ما لروحي عندما هتفتُ باسمك غمّرها
الحنينُ فاذا بها سكّرى ! يا لله ! إن الأحلام
لست حلّق في سمائي ! والأنغام ترقص حولي !

حبيتي ! ها نذا أناديك فلم لا تسمعين ! لم

تركتني وحيداً وقد جئتُ من أجلك ! رَبِّاهُ ،
أأعود من غير أن أراها ! وماذا أفعل بقلبي !
ويلٌ لي من قلبي !

وداعاً يا حبيبتى ، وفي حراسة الملائكة نامى ،
لاذقتِ السهادَ الذى يقرّح جفنى !

وداعاً يا من أرقتِ بنُعَسِ الجفون عيوني ،
وليهنّ بالنوم طرفك الساجى ، فى حين أضحو أساهر
النجم وحدى .

يا دموعاً تشبه غيثَ الغمام وتحكى قطرات
الندى ، حَتَّامَ يستمر هطالك وقد جفت
مآقيك !

أيها الليل الساجى متى تنفض عنك وحشتك !
ومتى ينبثق ضوء الفجر فيبدد ظلمتك ! إن سَاهِرَكَ

يستوحش في دجاء ويرقب بعد طول الجفاء
صَبَحَكَ .

٢٢

الموعِد

أنتِ يا من تباعدين ما بين مواعيد اللقاء
وتسرفين في الأيام كأننا نعيش مخلّدين أو نأمن
عادات الزمن ، ما هكذا تطمئنين للأيام والأيام
تغافلنا وتمضى .

السعادة كالشهاب اللّمْحاح يخطف سناه العيون
وَقَلَّ أن يتاح للعيون أن تخطف من سناه . فهي
تعمينا عنها حين تشرق فينا ولا تدعُنَا نراها إلا
حين تغرب عنا . فهيّا يا حبيتي نختلس من بارق
الهناء الأمل ، ولنتبسّم اليوم إليه فغداً سوف

نسكب الدموعَ عليه ..

- اخلقى من كل شيء ومن لا شيء مناسبةً
للقائنا ، وتحدى بجنون الهوى عقل القدر .
واذكرى أنك إذا أردت أن تكوني مُحِبَّةً فلا
تكوني عاقلة ، لأن الحب والعقل نقيضان .

قرّبي الميعاد وهيتا إلى نزهة النيل نشقُ
بزورقنا لُجَجَ المياه ونرشف بين رقص الأمواج
القُبَل . ثم نرسو عند باسق النخل المخضَّب
الأهداب بدماء الشفق ، فتعانق بين أعشاب الربى
وتتشاكى الهيام بالعيون الدامعة .

إننا ونحن في فجر غرامنا أولى بنا يا حبيبتى
الآن نضيّع الأيام ، فلکم يحدثنى قلبي بآن الأيام
ليس لها دوام ولا فجر الغرام له ضحى .

يقولون إننا فضل في الظلام ولكنني ضللت
في نور عينيك يا حبيبتى .

كلما لاح منهما النور زاغ الوجود في عيني
ورحتُ أهرم في شعاعهما المريب على غير هُدًى .
إننى ما اهتديت إلى شيء ، لا ولا بحث عن
شيء ، ولكنني فقط ، كنت أحس في أعماق قلبي
بانفعالات جمّة خالطها الغموضُ فأكسبها
حلاوةً ولذة .

لو دريتا ما سحرُ العيون يا فتنتي لما راعنا
بعد اليوم عبثُ العيون الساحرة . هو لغزٌ فيه
من لبسِ الغموضِ بيانٌ ومن مضلّةِ الابهام

يقين^ه وهدى .

٢٤

القلب

تسألين ما سحرُ الجمال ، أمامك المرأةُ
فانظري إليها . وحاذري أن يخادعك منها السحرُ
فتصبحي مُدَكَّهً بحسبك مثلي .

أنا في هواك ما بين واجدٍ ومضيّعٍ لقلبي .
حقبةٌ من حياتي قضيتها في البحث عنه فكان
فقداني له بدأ عشوري عليه . فمن خفقة الحب
ما أدركتُ أن لي قلباً ، وأن هذا القلبَ مني بالحب
منسَزَع . ذلك أنه مُدَّ شُغِلَ بك يا حبيبتي
راح يشغلني هو الآخر به .

يا من منحني وسلبتني فؤادي ، تعالي تعانق

بقوة لتبادل في غفلة الحب اختلاس القلوب .
إن من أضاع يا حبيتي في الهوى قلبه فقد
وجده .

٢٥

نسوة

وصفها الطيبُ خمرةً من فمك لما عادني .
فاسقنيها شراباً سحريراً يسيل في الروح فيحليها
راحا .

أجلُ الأوقات لحظةً يغيبُ العقلُ فيها
فتستفيق الهواجسُ المستحبةً فيه . وحياتنا
مسٌّ من الوهم فكل مسٍّ يصيبنا فيها مُحَبَّبٌ
إلينا .

هاتِ فكِ يا حبيتي إذنْ وهياً نغيب برهةً

مع الأحلام . أجل ، وتتوه العيون منا فيتوه عنا
الكونُ إلا ما شابهَ منه أطيافَ الكرى .
وتضطرب الأرواحُ فتطيرُ مع التنهيدات حيث
تلتقاها الأنفاس المرتجفة . وتستحيل القلوبُ جراً
كلما أضرمه الهوى هبَّ منه علينا نسيمٌ وبرد .

ولكن ما بالك يا حبيبتى ترفضين هـلاً
افتديتِ بشهد الجمال شهيدَ الجمال ! أيتها البخيلةُ
بجمالِكَ علىَّ أنا الكريمُ بروحى ، هبى الحياةَ أو
هبى الموتَ فسيان عندى النقيضان ما دمتِ السبيلَ
إليهما .

٢٦

و

قبلة

من أين أشعل سيجارتي ، أَمِنْ خدكِ الملتهب

أم من قلبي ! إني أضنّ بهذه النار أن تحرقها ،
ووددتُ لو أحرقتُ في إن أنت سمحت له أن
يقبلك .

آه ، لو أعدت لي بشفتيك ما سلبته مني
جفونك ! إذن لشربتُ في تلك القبلة كأس الحياة
التي أراقها من قبل حبك .

لا تحسبني أكره الموت في سيلك ولكنني
أحببتُ الحياة لأجلك . ففي سبيل حبك المميت
ما أتشبثُ بالحياة لأتذوق فيها من الموت .

٢٧

دول

عندما تزجريني فأقبل فـك الذي يزجر ،
وتبعدينني فأقبل يدك التي تبعد .

وعندما يمتزج بخديكِ لُهبُ الفوزِ بحمرة
الحجل ، ويختلط في عينيك بريقُ الكبرياءِ بإغضاءِ
الندم .

وعندما تجلسين هناك في أقصى الغرفة ، تخالسيني
النظرَ من أنٍ لآنٍ وتهزّين ساقيكِ في نزعِ
الأطفال .

وعندما أجلس تائه العينين ، أرقب في لذةٍ
قوتي وهي تتلاشى أمام حبكِ ، وكبريائي وهي تهوى
أمام سلطانكِ .

وعندما أنهض من مكاني كالثمل ، فأطوّق
خصركِ بيدي وأسند رأسكِ إلى صدري .

هنالك يا حبيبتي يخالط أعيننا الوسنُ فنري
في بعض الموت آيةَ الحياة .

زهرة

غَرَسْتُهَا زَهْرَةً فِي آيَةٍ وَسَقَيْتُهَا مِنْ دَمِوعٍ
جَارِيَةٍ . شَمْسُهَا كَانَتْ مِنْ لَهَبِ الْفُؤَادِ وَنَسِيمُهَا مِنْ
تَهْدِاتِ الْبَعَادِ . غَنَّيْتُهَا فِي الْوَصْلِ الْخَانَ الْهُوَى
وَشَكَّوْتُهَا فِي الْهَجْرِ آلامِ النُّوَى .

وَتَرَعَرَعَتْ فَتَفْتَحَتْ فَازْدَهَتْ فِي الرُّوَضِ
لَوْنًا وَعَطَّرَ أَوْسُنَا . فَبَكَيْتُ إِذْ أَذْنَتُهَا مِنْ شَبَابِهَا
الْمُنِيَّةُ لِأَنَّ صَحْوَةَ الْحَيَاةِ إِنَّمَا تَتَضَمَّنُ غَمَضَةَ
الْمَوْتِ .

فَرَاوَدْتُهَا عَلَى قَطْفِهَا لِأَسْتَدِشِفَ مِنْهَا الْمَعَانِي
قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِسَهَا فِي غَفْلَةِ الشَّبَابِ الْبِكَلَى . فَتَمَنَّعَتْ
فَقُلْتُ لَهَا مَا الْبَخْلُ بِالْجَمَالِ بِوَأَقِيهِ الْمَوْتَ وَلِئِنْ

تبذليه خيرٌ من أن تدعّيه يفنى .

فقلت أجلٌ إن يدك وإن قسّست ما إخالها
إلاّ أحنى على من الزمان يدا . وأنا وإن عزّت
على الحياة أيروعنى أن أمسى فى الغد فلا بى حسن
يرفٌ ولا يضوع من أنفاسى شدا .

فقطفتها فقدمتها إليك زهرة عبقرية ماؤها
من عصارة قلبى وروحها من لفائف حبنى .
وعت أوراقها المذاع من سرى وأبانت
بصمتها المستور من وجدي .

إنصت إليها تحدثك بكلامٍ هو وإن يكن غير
مسموعٍ إلا انه فصيح . أسلوبها الشّعْرُ وإيقاعها
الأيحاء فهي تخاطب القلوب بلغة القلوب .

واحفظيها يا حبيبتى إلى يومٍ تواتينا فيه المنية ،

وعند ذلك نهجع إلى جوارها حيث يطيب في غياهب
الأبد السحيق استذكار الحياة .

٢٩

الضعف

لكِ قلبٌ يا حبيبتى ولى قلوب ا فأحبينى إن
شئتِ وحدى ، أمّا أنا فلا بد أن أشركَ فى قلبى
غيرك . لستُ أنكر ما للونك الأسمر من سخونةٍ
توقد النارَ فى جوانحى ، ولكن لا تنسى ما للّون
الأيض ما للفجر المنبثق من روعة .

إنما قسّم الحسنُ ما بين الحسانِ وما الجمال
الكامل إلّا مجموع ما فيهنّ من جمال . فدعيني إذن
أقلب بين الحسان حتى لا يفوتني شيء من الجمال
الذي من أجله أحيّا ، ولا تكلّيني إلى عبث الفناء

قبل أن أحقق منه الأمانى فإن حياتى حُلُمٌ
لا يعود .

هَبِيكَ بِكِتِ فما حيلتي أنا الأناثى ككل
إنسان إذا أنا تجاهلتُ دموعك فى سبيل مطامعى !
أقرب الأشياء إلىّ نفسى فكيف أجيبك إلى ما فيه
حرمانى فأبرّ بك وأعقّ نفسى ! لك أن تشكى
إلى القدر ما أودعه القدرُ فىّ من أنانية ، ولكن
لا تلومينى أنا البريء على أنى أردت ألاّ أكون
ظلوماً لنفسى فظلمتكَ .

إبْنُكِ ما شاء لك البكاء ، ولتتدفق دموعك
تدْفُقَ السيل وقد أذابت فى قطراتها الملتهبة حياتك .
ولتلمس بحدّك المرتجف فى حرارة الدمع تلك
الحياة الغالية وهى تنساب معه إلى حيث يذروها
الفناء الذى لا يرحم .

ما أجمل دموعك ! وما أعذب ضعفك
وتوسلكِ وتهداتكِ التي تفتت الأكباد ! إن هذه
المعانى وإن الطوت على قسوة لتستحيل في فؤادي
إلى شعور بالحنان تشبه وداعته ابتسامك . وهل
الحب إلاّ الحنان ، عندما يستسلم القلب للقلب
فيفنى فيه ، فإذا به في هذا الفناء يعود أقوى ما يكون
شعوراً بالحياة ، وإذا بنا كلما ازددنا في سبيل الحب
انكاراً لأنفسنا ، زادنا الحب زهواً واعتداداً بها .

إذن أنا لست بالأنانى يا حبيبتى كما نعتُ
الآن نفسى ، ولكننى المضحى بالنفس فى سبيلك ،
أقسو عليك ليعاودنى الحنان لأجلك ، وأُفنيك
بالآلم كى أقي فيك .

إنما الحب فناء نرتضيه لنلقى الحياة فيه ،
وضعفٌ نستكين إليه لنحسَّ قوة الجمال منه .

تفتننا القوةُ فيمثل تأثيرُها فينا ضعفاً ، وقد تكون
القوةُ جمالاً ، وقد يكون الضعفُ حُبّاً . فلئن مجّدنا
القوةَ لأنها الجمالُ فلنمجّد الضعفَ لأنه الحب ،
فما أجمل الضعف يا حبيبي إذن !

أنا ما أبكيك إلاّ لأبكي لأجلك ، ولا
أذلتك إلاّ لأذلّ لك . ها أنا أنظر إلى عينيك
لأبكي بدمعك . ها أنا أتلقى أنفاسك لأتهد بقلبك .
ها أنا ألمس حرارتك لأتهب بوجدك . ها أنا
أضمك إلىّ لأفرغ فيّ أملك .

أنا ما أحببتُ سواك ، لا ولن أحبّ غيرك .
لى قلبٌ واحدٌ وقد غدا مُدّه هويتك عبدك .
جفّني دموعك ، كم أحبُّ بكاءك وكم أضنُّ
بدمعك !

قدّستُ شهواتي فاستسلمتُ لها فما رأيتُ

كالضعف لذة . ونظرتُ لنفسي فوجدتني أقي
في النهاية فتذروني الرياحُ فأجبتُ الضعفُ
في نفسي .

لن يتاح لنا أن نتذوّق اللذة إلا إذا رضينا
بأن نتذوّق الضعف . هبوا أننا تذرّعنا بالقوة
فقاومنا شهواتنا حتى حطمتناها ، فماذا يبقى لنا بعدها
لكي نعيش ! شهواتنا ! هل نحن إلا شهواتنا !

٣٠

رهيل

أمس ودّعْ عَشْكَ ... وكانمّا كنت أودّع
روحي ! ولبثتُ أشيّعك من خلال الدموع وأنت
تمعنين في الغياب إلى أن استحال وجودك طيفاً .
ثم عدتُ أدراجي ، فإذا الروضُ واجمٌ لا مَرَحَ

فيه ، وإذا الأغانى باكياتٌ تستثير الدموع . ويلٌ
لليوم من الأمس !... لأن جميع الابتسامات تنقلب
إلى دموعٍ ، عندما تصبح العهود ذكرى .

لقد هجرت الدوحة من بعدك ، لأنى لم
أُطِق أن أرى مكانك خالياً منك . ثم عزَّ علىَّ
أن أعقِّ ذكرياتى فعدتُ أُطيلُ المُكث تحت
ظلالها وأستنطق العهود من صمتها . ولكم أخلو
إلى نفسى أردِّد أغنيك فما تلبث نغماتها أن تحمل
إلى صدى الأيام الماضية . وهناك تُغالبنى دمةٌ
طالما حبستها فى عيني ، فأرسلها ماءً صافياً ، ولكنه
يضم فى جوفه لهيباً . ما وفى لماضيه من ضنٍّ عليه
بالأم ، ولا برٍّ بذكرياته من لم يسترخص فى سبيلها
الدموع .

كنتِ كالطائر غنى برهةً على الأيك ثم

هجره وخلّف لوعةً في القلوب . أيُّ أبنك
يضمُّك اليومَ يا ترى وأيُّ رفاقٍ إلى نزهة الغاب
تصحبين ! وهل بكِ مثلي حنينٌ إلى الأوطان أم
أنك كالطير تتعلق بهواكِ القلوبُ ولا تتعلقين
بأحد !

سألوني ما إذا كنتُ نسيْتُك ... كلاّ لم أنسَ
أملِي . لئن غبتِ عن عيني فأنتِ ماثلةٌ في خيالي ،
أراكِ كما أرى الحُلُم . يا من رحلتِ عن الديار
وخلّفتني وحيداً ، ليتني كنتُ ظلكِ فتبعْتُك ،
أو كنتِ النسيمَ فرافقتك !

٣١

استعطاف

حبيبتِي ! يا صاحبة القلب الحنون ! لم تنسين

بهذه السرعة حبيك ! لِمَ أَقْصَيْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ
قَلْبِكَ ، وَقَدْ كُنْتُ فِيهَا مَضَى أَقْرَبِ النَّاسِ
إِلَيْكَ !

أَنْتِ يَا مَنْ يُبْكِيكِ سَجْعُ الْحَمَامِ وَتَجْرُكُ
خَطَرَاتِ النَّسِيمِ ، مَا بِأَلْسِنَتِكَ الْيَوْمَ لَا تَأْهِنُ لِلصَّارِخِ
مِنْ دَمْعِي ! لِمَ تَبَدَّلَ عَطْفُكَ ، وَرَفَقُكَ ، وَحَنَانُكَ ،
أَنْتِ . . . يَا صَاحِبَةَ الْقَلْبِ الْخَنُونَ !

مَا لِعَيْنَيْكَ أَصْبَحَتَا وَكَاثِمَهُمَا لَا تَعْرِفَانِي ! وَمَا
لِقَلْبِكَ غَدَا وَكَأَنَّهُ مَا خَفَقَ لِي ! أَفَمَا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
يَنْقُضِي مَا كَانَ بَيْنَنَا فَلَا الشَّوْقُ حَائِرٌ بِالْفُؤَادِ وَلَا
الدَّمْعُ مُشْرِفٌ فِي الْعَيُونِ !

أَمْسَ فَقَطْ ، اسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَى أَنْ نَسْمِيَ
ابْتَدَأَ « رَمُونًا » ، فَلَيْتَ شَعْرِي مَا الَّذِي جَرَى حَتَّى

تبددت الأحلام ! واهاً لك يا دهر ، إن الأمان
لمستحيلٌ مع تلونك ، والدوام لعبثٌ مع
تقلبك !

حبيبتى ! أمفترقان نحن اليوم إلى الأبد ! إذن
فسوف لا نبني عُشّاً من جذوع الشجر ، وسوف
لا تولد « رمونا » ، فيالأسف على ذلك الحلم
الجميل !

أيها القمر الذى أغرقتنا بشعاعك ، هل سيطلع
علينا بعد اليوم نورك ! أيها النهر الذى بكّلتنا
برشاشك هل سيثب إلينا بعد الآن موجُّك ! أيها
الروض الذى جلّلتنا بظلالك ، هل سيجمعنا فى غدٍ
دوحك !

حبيبتى ! يا أعزَّ مَنْ فى الوجود ، ويا حُلماً

مضى فما يعود ، سقى الله عهداً كنت فيه
حبيبك .

٣٢

الماضى

أين غبتَ عنى أيها الماضى الجميل وتركتنى أتحرّق
شوقاً إليك ! لم أخذتني معك ، وأخذتَ حبيبتي
ومضيت ! ويحى ! لست أنا الآن في يومى ذلك
الذى كنته فى أمسى ! فليت شعرى ما ذلك
الذى مضى وما ذلك الذى تحكّف منى !

أين شخصى القديم الذى كان يلازمه الحبيبُ
ويحدوه الأمل ! أين شخصى الذى كان يفوح منه
عطرُ العناق ويبلل شفتيه رحيقُ القُبُل ! أين
شخصى المشرقُ المتهلل الباسمُ أبداً للحياة ! إنه

مضى ! مضى بلا شك مع الزمن ، وحل محله
شخصى الحزين المائل أمامى الآن .

ينخل إلى أن حياتى ليست إلاّ سلسلةً حلقاتها
الماضى والحاضر والمستقبل ، وأنى الآن فى حاضرى
لستُ إلا حلقة فى سلسلة حياتى . وانه كمُحالٌ
أن يكون الانسان منا مستحوذاً على نفسه ، بل إنه
ليرقبها بعينه وهي دائبة الأفلات منه دون أن يقوى
على كبجها .

إنّ تعلقَ الحياة بالزمن يجعلها سلسلةً
متواصلة من الفواجع . فنحن أبدأ نمضى ، وأبدأ
نحن إلى ما مضى منا ، ومن هنا طبع مزاجنا
على الحزن والحنين . دائماً حواسنا متعلقةٌ بخواطر
ماضية لا تفتأ تهيب بها وتحيطها بجوٍّ غامض من
الأسرار إنْ هو إلا عالمنا الشعرى الذى يزاحم فى

تصوراتنا العالم المحسوس . نحن نبكى الماضى ، وما
نبكى إلا أنفسنا فيه ، فبالنفاهة حياة يُفجع فيها
الانسان فى نفسه !

آه ، أيها الماضى الجميل ! ليتك تعود إلى لحظة ،
وتجمعى بمن أحبُّ لمحّة ، أيها الماضى الذى غافلتنى
ومضيت !

٣٣

ذكرى

أنا مشتاقٌ إليك يا حبيبتي فهل بكِ شوقٌ إلىّ ؟
وهل نحن اليوم كما كنا بالأمس قادران على أن
نبلغ الشوقَ المنى !

أحقًا أن ما كان بيننا قد انقضى فإذا حان
ميعادك لا أخفُّ إليك وإذا أقبلت لا تجدينى

بانتظارك ! وأنى الآن أصبحت أنام ملء الجفون
بعد أن كنت لا أرى النوم إلا في نعاس جفونك !
أحقاً أنى أقفتُ مما كان بي ومضى عني ذلك الشاغل
الذي الذي ملأ كل فراغى !

أحلمُ كنت أم كنت حقيقة ! متى طلعت
وأن غبت ومن أقصاك ولم ! أين أيامك ، أين
عهدك ، أين زمانك ، أين عصرك !

لو لم يكن لى أمس لما عرفت الشقاء فى غدى .
أمّا وقد استحالت العهود إلى ذكريات فىا وبلى
مما مضى من هنأى !

فقدتُك يا حبيبتي وإنه كعزيز على والله
فقدك . فياليتنى ما حظيت بقربك ، إذن لما كنت
التاغ غداة الفراق لبعذك !

عندما تتالق الابتسامة على الشفاه يتأهب الدمعُ
من ورائها للنزول . وما الذي يفتابنا في الحياة من
حزن إلاّ ذكرى ما نلقاه فيها من سرور .

٣٤

موت

كلاّ لا أنتحر بل يقتلني من أجلك الحزن .
فإذا ما طوتني المنية فابكى يا حبيبتى لا علىّ وإنما
على الحب الذي سيلى . واحملى إلى القبر السحيق
باقاتٍ من الورد الذي تبادلنا لبّان حلّم
الحياة .

ما بعزيرةٍ علىّ نفسى وإنما الحب الذي تضمّه
لك نفسى . ولا هالني انطفاء النور من عينيّ وإنما
أن يغيبَ بانطفائه نورُك ، حين أمسى فلا بى هوىّ

بالفؤاد ولا بى فؤادٍ يهوى ، وأُحرمُ حتى من
شعور الحرمان منك .

إذا أوشكتُ الحياة أن تغيب تعلق القلبُ
حتى بالذى برَّحه من الهوى . ودَدْتُ وأنا فى
سُبُبات الموت لو أحلم مرة بالحياة .

٣٥

صلح

بقدر ما أحبك ، أغضب منك . لأنى أحفل
بأقل شئ ، عندما يكون الأمر عندي كلَّ شئ .

إذا حانت منك إغضاءةٌ واحدة ، أحسستُ
باليأس يدبُّ في قلبى . فأُخاصمك ، لأنى أضنُّ
حتى بالذى لا يُذكر من حبك . إمّا أن تكوني لي
كلّك ، وإمّا أن أثور على نفسى فاتحدسى

جنوني بك .

لئن قَدَّرَ لي أن أفقدَ بعضَ نفسي ، كدَفَعْتُ
إلى الاتِّحارِ بقيةَ نفسي . التوسطَ عندى أدنى من
الحرمان ، فلكَ أن تمنحني كلَّ شيءٍ ، وإلا فإني
لا أرغب في شيءٍ . إنَّ دموعي وإنَّ قسَّتْ ،
أرحمَ بي من فاطرِ ابتساماتك . وموتي وإنَّ قَبَحُ ،
أحبُّ إليَّ من أن أعيشَ بنصفي .

ليس من حقى ، ولا فى مقدورى ، أن ألزِمَكَ
بأن تشغى بي وحدى . ولكن من حقى — إذا كان
فى مقدورى — أن أخفى إذا لاح فى الأفق
غبرى .

وعندما خَبَرْتُ نفسى كَيَسَّنْتُ أن ذلك فى
مقدورى ، لا لأنى فاطر الحب ، وإنما لأنى حديدى

الارادة . سهلٌ علىَّ أن أرقب نفسي وهي تتحطم على
صخرة شهواتها ما دام ذلك بإيعاز إرادتي . إني
أشفق عليها أن تتخلي عن مطامعها ، كما أربأ بها أن
تذلَّ لها ، ولكنني أَرْضَى لها أن تتحداها فتشقى
بل تندحر من أجلها .

يخدع الانسانُ نفسه إذا ظن أنه عندما يهرب
من مطامعه يتخلص منها . إن الأمانى الضائعة
لا تموت ولكنها تكمن في قرارة النفس فتدلهـا إلى
الأبد . وَلَكُمْ يفر الانسان من اللغز العويص
ويحسب أنه قد حله ، ولكنه لا يلبث أن يتنبسه
للالم الدفين يمتص في الخفاء دمه .

هجرتك يا حبيبتى وشدة ما هالني أنه كان في
استطاعتي هجرك ! لأنني مذ آنستُ القوة في
إرادتي ، رحت أتوقع لنفسي ما لا طاقة لغيري به

من الألم . ذلك أتى دأبت على محاربة حبك
فلا أنا انتصرت ولا أنا تراجعت ، فتكرر مصري
بتكرار هزائمي حتى غدت حياتي سلسلةً من
الموت !

غير أني التمسْتُ العزاءَ لنفسي عندما تبيّنتُ أن
آلامي تخالطُها شجاعةٌ وإباء . لأنني لم أتخلَّ
عن رغباتي فأجحد بها ، ولكنني أبقيتها وتأملت
في سبيلها ، فكنت في ألمي شجاعاً ، وكنت فيه
وفياً .

أجلّ خاصمتك يا حبيبتى ، وكان في نيتي أن
يكون الخصامُ خصامَ الأبد . ولكن ما دمت قد
أقسمت لى بآنك وفيّة ، وبآنك كنت تمزحين
لتتخنى حبي ، ففي وسعي أن أعتبر نفسي عجولاً ،
وفي وسعك أن تعتبريني غيباً ، ولكن في وسعنا نحن

الاثنين أن نعود كما كنا .

وهاهي قبلة^{هـ} أطعها على جبينك ، ليس أطهر منها
سوى قلبي . قلبي ، الذي بقدر ما يحبك يغضب
منك ، وبقدر ما يحبك يصفح عنك .

٣٦

صرد

بقدر ماتريده تصدّه . خَشِيتُ أن يعرف
الملالَ قلبه .

غاية الحب أن يظل إلى الأبد . يحرم نفسه
اليومَ ليحظى بَعْدَ .

كم أمانٍ في صدره تعيش . يقتلها طمعاً في
أن تعيش .

طردته ، ثم شيعته بالدموع . وجرت
تشكو لهياً في الضلوع

ثم رضيت أن يطول بُعده . لو يسقى على
العهد قلبه .

يقيم العاشقون في الدنيا بأجسامهم . ولكنهم
يلتقون في الغيب بأرواحهم .

ولقد يناون فيزدادون تدانيا . ولقد يتخاصمون
فيزدادون تصافيا .

٣٧

الأسلوب

أتذكرين يا حبيبتى عندما فرّق البعد ما بيننا
فتحدثنا بالبريد عما بنا ؟ لقد كان أسلوبك كخيال

الحالم ، فعندما كنت تتحدثين إليّ فكأنما كنت
تساجيني من وراء الغيب فتغيين بروحي إلي عالم
من الأحلام .

أسلوبٌ إذا آتته الحكمة أذابها في شعرٍ
فتناولتها الأرواح شراباً شهياً . وإذا صيغ أفرغ
في قلبٍ من الجمال فالسبب في الأسماع نغماً شجياً .
وإذا انطلق كان شرارة من أنفاسك فبدا من فرط
الحرارة حياً . وإذا سار اطرّد على نسقٍ واحدٍ
فكان في اتلافه تنغماً وترياً . وإذا انساب دلّ
على سباحة فتنزّه عن الحقد الذي يستفز من
النفوس ما كان ذكياً . وإذا جرى جمع إلى الفكر
الروح فأتى بما يغيب عن العقل وينزل على النفس
وحياً شعرياً . وإذا عاتب لم يفحش في القول
واستعاض عن السباب منطقاً سحرياً . وإذا تلى

فِهِمَّتُهُ الْخَاصَّةُ دُونَ الْعَامَّةِ فَلَا هُوَ مَبْهُمٌ وَلَا هُوَ
يَصُوغُ الْقَوْلَ صَوْغًا عَادِيًّا .

وَأَعْجَبَ مَا فِيهِ أَنَّهُ كَانَ عَمِيقًا كَالْحَيَاةِ سَرِيعًا
كَالزَّمَنِ . فَهُوَ يُعْطَى لِلزَّمَنِ مِنَ الْحَيَاةِ وَلَا يُعْطَى
لِلْحَيَاةِ مِنَ الزَّمَنِ . وَالزَّمَنُ نَحْنُ وَالْحَيَاةُ مَا حَوْلَنَا ،
وَقَدْ نَفَنَى وَتَبَقَى مِنْ بَعْدِنَا الْحَيَاةُ . فَالْغَيْبُ مِنْ
سَبَقَتْ حَيَاتُهُ زَمَنَهُ فَعَاشَ أَطْوَلَ مِنْ عَمْرِهِ ، لِأَنَّهُ
إِذَا ذَاكَ يَفُوزُ بِأَكْثَرِ دُنْيَاهُ فِي أَقَلِّ وَقْتِهِ .

وَأَحْيَانًا كَانَتْ تَشْوِبُهُ ثَرَّةٌ وَلَكِنَّمَا مُسْتَحَبَّةٌ ،
لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ تَكَرَّرُ وَإِنَّمَا تَرَجَّعُ . وَأَحْيَانًا كَانَ
يَشْوِبُهُ بَطَلٌ وَلَكِنَّمَا مُسْتَعَذَّبٌ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ تَلَكُّنَا
وَإِنَّمَا تَأْمَلَا .

هَكَذَا يَاحِيْتِي كَانَ أَسْلُوبُكَ ، فَيَا حَبِذَا لَوْ نَحَا
نَحْوَكَ الْكِتَابُ !

المهرمان

إنما يَخْلُقُ الحرمانُ الغاية . لأن الغاية هي تخيل
 ما يجب أن يكون . وما يجب أن يكون لم
 يوجد بعد .

والغاية تمهد لنفسها بالأحلام . لأن الأحلام هي
 تلك الهالة المقدسة من الخيال التي تنسجها الغاية
 حول نفسها لتلهو بها إلى أن تتحقق .

وكما تنحدر الأحلام في شكل أمنية من الغاية
 التي لم تتحقق ، تقفز في شكل ذكرى من الغاية التي
 تحققت بعضها . ذلك أن الغاية التي لم يتكامل تحقيقها
 تحاول أن تستكمل ما فاتها بالذكرى ، فنحن عندما
 نختلس القبلية التي ليست إلاّ بعض ما نطمح إليه ،

نحاول بعقلنا الباطن أن نتخلص من بقايا الرغبة
المكبوتة فيه بتخيل ما تحقق منها .

على أن الذكرى على ما فيها من لذة غير محدودة
لا تكمل ما نقص من الغاية وإنما تزيده لأنها
تذكىه . ولكن حبذا ذلك لأنها لو أكملتها لا بآدتها .
وإنه لمثل هذه الاعتبارات الفذة ما ينفرد الحب
بلونه الخلاب .

فنحن إنما نحلم بالحب الذي لم نظفر به ، أو
الذي ظفرنا ببعضه . ولكننا لا نحلم بالحب الذي
ظفرنا به كله ، لأن الغاية إذا تحققت ماتت إذ أنها
إذ ذاك تستحيل إلى لذة تذوب في حواسنا . وإذا
ماتت الغاية ماتت معها الأحلام .

ولكن الحب الأبيّ يظل دائماً غايةً لم تتحقق .
لأن تحقيقه لن يتكامل فكأنه لم يتحقق . فالحب

عندما يختلس القبة لا يروى كل ظمأه منها فيظل
به شغفٌ إلى التقييل . فهو يمهّد للقبة الجديدة
بالأحلام ويستكمل لذة القبة القديمة بالذكرى . ومن
هنا كان أن أحيط الحب بالأحلام .

٣٩

الأحلام

إنّ تحرميني منىّ فيك تُبَلِّغيني من الحب
المنى . لأنّ الحب إذا اتّابه الحرمان راحته تحلّق
الأحلام في سمائه .

والأحلام أجمل اللذات وقعا في النفوس لأنها
ومضات إحساسنا الباطن . وإحساسنا الباطن هو
شخصيتنا لأنه يمثّل كمية الآدمية المكتنزة فينا منذ
الأزل . فنحن إنما ورثنا أنفسنا من الأجيال ، وما

شخصيتنا إلا ذلك الغابر المدّخر فينا يتراى — وقد
قدم عليه العهد — في شكل أحلام وهو اجس .

فأحلامنا هي رجّعُ ماضينا ، ونحن لسنا أبناء
يومنا . فنحن إذ نحلم إنما تتفاعل مع أنفسنا وإنه
لمن أنفسنا ما تولد لذاتنا . إن اللذة كامنّة فينا
وليس بيننا وبين الإحساس بها إلا إثارتها . وكل
شيء نحسّه مستتر في شخصيتنا ، وما كان غريباً
عنا إنما يعجبنا لأنه يكشف عنا .

أيها المِسرفُ المُلِحُّ في طمعك يا قلبي هَلَا
أمنتَ بلذة الحرمان في الهوى ! إنك لن تكون
منعماً حتى تكون في طمعك شقيّاً ، ولن تكون فيه
شقيّاً حتى تكون منه محروماً .

أى حبيبتى ، إذا سألتك اليوم موعداً فقولى
غداً ، فاذا أقبل الغد فقولى بعد غد . وحذار أن تنفي

بالوعد إلا أن تخافى على فؤادى أن يهلكه
الأسى .

إن يفتنى بعضُ المنى فيك أفرزُ بأقصى الأمانى
فى الهوى ، وهل لغير الهوى يا حبيبتى أريدك !

٤٠

الشك

ما أبدع الحبَّ يدخله الشكُّ فيحيطه
بالأسرار ! وشده ما نحن مولعون بالأسرار ،
أما ترانا أنفسنا لغزاً لم يُفسَّر !

حتى الجمالُ الذى يفتننا يستمد روعته مما يسبح
فيه من معانٍ غير مفهومة ! فأننا ما أحببتك إلا
لأننى توسمت فيك سحراً ولم أدر ما هو !
ولو أننى دريته لمجته ، لأن معنى أننى حلتُّ

اللفز أنني قهرته . ولا يكون التلذذُ بالشئ إلا حيث
تكون العواطفُ مقهورةً به ، إذ ماذا عساه يكون
افتتاننا بالجمال إلا أن يكون شعوراً منا بالضعف
خيال قوته !

الشك ! ياله معنى يهز الحواس بعنف فيولد
من تفاعلها اللذة . اللذة ، التي كثيراً ما هي مشوبة
بالآلم !

ولكن في بعض الآلم لذة . فالدموع ، واللوعة ،
والسهاد ، مَنْ مِنْ المحبين الذين صَحَّوْا من غفوة
الحب لا يحنُّ إلى ذلك العذاب المقدس !

على أن الآلم وإن يكن أدنى مرتبةً من اللذة
إلا أنه يَفْضَلُ الخمول . لأن في الآلم — كما في
اللذة — معنى الحياة ، في حين أن في الخمول معنى
الموت ، وأنىَّ للذات أن يقاس بالحياة ! إن الخامل

نصف حي . ولكن نصف الحى هو أيضاً نصف
ميت .

فالإنسان المتفوق يكون فى وسعه إلى حدٍّ ما أن
يستعذب الألم . أن يلاشيه فى إرادته الغير محدودة ،
ويخلق من صدهاء معنىً جديداً من الشعور هو
أقرب إلى اللذة المتمردة منه إلى الألم .

كم أعبد الشكَّ يا حبيبتى إذن ، وأود برغمتى
لو أرتاب فى هوائك إلى الأبد ! كلما دعانى فضولُ
الهوى أن أسألك ما إذا كنتِ تحبيننى ، فلا تقولى
أحبُّك ، وإنما قولى لا أدرى .

٤١

الاستمتاع

آه لو أولد من جديدٍ فأقضى الحياةَ على النحو

الذي فاتني !

إذنْ لَزَهَدْتُ في العمل الذي حسبته سبيلا
إلى غايتي ، فما أبقى على وقتي ولا حقق غايتي .
ولأطلقتُ نفسي مع الطير أرشف القبَل من ثغور
الآقاحي وأحتسى الرّاح من كئوس الثمر .
ولشغفتُ بالشعر والغناء كما ترقص الأحلامُ
حولى كلما غرّدتُ بالنغم الحنون .

وكرضعتُ من الهوى صبيّاً ، ولم أرجى .
إلى غدى ما قد لا أكون قادراً عليه في غدى .
قلوبنا كالزهر لا يتفتح إلاّ في ربيع الحياة وإذا
طلع عليه الخريفُ ذوى . فحرامٌ علينا أن نستعمل
الشباب بينما دنيا الشباب المُجدّة لا تمهل .

ليس في غدنا أمنيةٌ أدنى إلى الحقيقة مما نحن
عليه في يومنا . فعلاًمَ تضيع العمرُ في انتظار

الامانى والامانى بين أيدينا !

وَلَمْ نَحْجَمْ عَنِ اللِّذَاتِ اتِّقَاءَ الْهَلَاكِ بَيْنَمَا
الْإِحْجَامُ يُهْلِكُنَا ظَمًا إِلَيْهَا ! إِذَا نَحْنُ لَمْ نُدْفَعْ
مِنْ أَنْفُسِنَا ثَمَنَ تَمَتُّعِنَا دَفْعَهَا كُلِّهَا ثَمَنَ حَرَمَاتِنَا .
وَزَمَانُنَا مُسْرَعٌ بِنَا نَحْوَ النِّهَايَةِ فَإِذَا لَمْ تُفْنِنَا
لِذَاتِنَا فَلَسَوْفَ يَفْنِينَا زَمَانُنَا .

عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أَهْمِلَ شَهْوَاتِي ، وَمَا أَشْتَهِيهِ الْيَوْمَ
قَدْ أَفْقَدَ الرِّغْبَةَ فِيهِ غَدًا ، وَمَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِي
قَدْ لَا أَسْتَطِيعُهُ فِي كَهْوَلَتِي . إِنْ شَهْوَاتِنَا وَلِيدَةٌ
وَقَتْنَا فِيهَا تَذْهَبُ بِذَهَابِ وَقْتِهَا . وَتَحْقِيقُهَا رَهْنُ
اِقْتِدَارِنَا ، وَمَا يَبْدُو أَنْ يَظَلَّ اِقْتِدَارُنَا .

وَحَتَّى إِذَا بَقِيَتْ وَبَقِيَ لَنَا اِقْتِدَارُنَا ، فَمَنْ
يَدْرِينَا أَلَّا يَخْلُو بِنَا الْغَدُ فَإِذَا الْاِمَانِي سِرَابٌ

خادعٌ وإذا الأحلام خيالات هاذية ! وهبهُ
صدق ، قالنا والتماسُ الأمانى فيه ، وما بينه وبين
نهايتنا ليس أكثر مما بين نهايتنا وبين يومنا .

زعموا الحبَّ لهواً فقلنا وأين في الحياة الجد !
نحن المحبِّين وددنا لو نفى في الهوى لآتنا نضنُّ
بأنفسنا أن يفنيها الزمن !

٤٢

الغاية

كل ما يَلدُّ لى ، يبرر فى نظري وجودي .
وكل ما لا يلد لى ، يجعلني طَفِيلِيًّا فى وجودي .
وعلى ذلك فكل ما يلد لى ، هو لى غاية . وكل
ما لا يلد لى ، قد يكون وسيلة ، أو لا يكون
شيئاً .

أمّا ما يلد لي ، فإن الذي يعينه لي هو ميولي .
وأمّا ميولي ، فتدل على نفسها بنفسها دون أن تحمل
في ذاتها أيّما تعليل . فأنا مثلاً أحب الجمال
وأكره القبح لا لشيء إلاّ لأنني خلقتُ
هكذا .

وميولي وليدة غرائزي ، وليس في وسعي
أن أتحمك في غرائزي ، فأملّي عليها ضرراً جديدةً
من اللذات تجهلها ولا تستطيع أن تفتعل
الاحساس بها .

وغرائزي قديمةٌ فيّ ترجع إلى الأزل الذي
تلقيتُ عنه نفسي . فهي مرآةٌ تنعكس عليها صورُ
السنين ، ووترٌ يُرجّع نغماتُه صدى الأجيال .
وكما أمعنتُ فيما تمنحني عنه من أحاسيس
وميول ، لا أجد فيها إلاّ محض أحلامٍ وهواجسٍ

كل ما فيها أنها طريقةٌ مستحبة . ولكن ماذا
يحتاجه الشيء كما يكون جديراً بالقيمة في نظر
الإنسان إلا أن يكون طريفاً مستحباً !

فلا يذهبن بي الفضولُ إذنُ إلى أن أتبرم من
ميولى وأجحد شهواتي ، لأنه ليس لي أن أفهم نفسي
على غير النحو الذي حددته غرائزي . إذ ما أنا
وماذا عساني أكون اللهم إلا تلك المجموعة الزائفة
من الانفعالات التي تنعقد فتكوّن في النهاية
شخصيتي !

ولمّا كأنسان أرجع بنفسى إلى بدء الخليقة
وأمثل في شخصى البشرية كلها ، أرى أن ليس في
ميولى جديد وقديم . ذلك أن الميول ليست
إحساساتٍ مستقلة بذاتها وإنما هى وليدة الغرائز .
والغرائز تهذب ولكنها لا تتبدل ، فالإحساسات

المنبعثة عنها وإن تغيرت في شكلها تبقى محتفظة
بجوهرها . فأنا لم أزل أتأثر بجمال الغابة كما كان
يتأثر بها سلفي القديم الممثل الآن في شخصي ،
وكما سأتأثر بها في الغد ممثلاً في خلفي .

فأعمل مثلاً — وكثيراً من الأشياء غيره —
لا يحمل في ذاته أدنى لذة ، ولكنني أزاوله لأنوسل
به إلى تحقيق أمور أُخَر تُلذلي ، وعلى ذلك فهو
وسيلة لا غاية .

وما دامت الوسيلة ليست إلاّ أداةً لتحقيق
الغاية ، فيجب ألاّ يفوتني أتى — ونشاطي في هذه
الحياة محدود — لا ينبغي أن أُفنى هذا النشاط
كله في الوسيلة حتى لا تفرغ مني الحياة قبل أن
أصل إلى الغاية . إنه لمن سقيم المنطق أن آتي
بالوسيلة لأسخرها في خدمة الغرض فإذا بها تصرفني

عنه ، وإذا بي أفقده في طريقى إليه .

مَعَاذَ الْعَقْلِ أَنْ أَسْمَحَ لِنَفْسِي أَنْ أَقَعَ فِيهَا
وَقَعْتُ فِيهِ الْحُضَارَةُ مِنْ خَطَاٍ فَيَشْغَلْنِي الْعِلْمُ عَنْ
الشَّعْرِ وَالْعَمَلِ عَنْ الْفَرَاغِ وَالْمَادِيَةِ عَنْ الْمَعْنَوِيَةِ ،
فَأَفْقِدُ بِذَلِكَ غَايَاتِي وَأَفْقِدُ بِفَقْدَانِهَا مِهْرَاتِ
وَجُودِي .

على أنه وإن تسكن الوسيلة أدنى مرتبةً من
الغاية ، إلاَّ أنَّ من الغايات ما هو أدنى مرتبةً
من الوسيلة ، وذلك عندما يكون مضيئاً لغاياتٍ
أُخْرَى خَيْرَ مِنْهُ . فَالْخَيْرُ مِثْلًا يُعْتَبَرُ غَايَةً ، لِأَنَّهُ
لِذِيهِ ، وَكُلٌّ لِذِيهِ غَايَةٌ . إِلَّاَّ أَنَّهُ يَفْقِدُ قِيَمَتَهُ لِأَنَّهُ
يَهْدِمُ صَحْتَنَا الَّتِي هِيَ أَدَاةُ الْإِحْسَاسِ بِسَائِرِ
الْغَايَاتِ .

على هذا النحو يجب أن أفهم نفسي وحياتي ،

وأتصرف في نشاطي ووقتي . أقدر غاياتي وأدأب
على تحقيقها ، وأطلب الوسيلة بقدر ما أسخرها في
خدمتها فقط .

فإذا ما رأيتني يا حبيبتى أتفانى في حبك وأهمل
ما عداه ، فما ذلك لأنني ضللت صوابي ، وإنما
لأنني أحسن فهم نفسي .

٤٣

السعادة

لم نتوصل إلى السعادة بالعمل المنهك بينما
السعادة لا تحتاج منا إلى كبير عناء ! إن غاياتنا
بين أيدينا وليس بيننا وبينها إلا أن نريدها . ففي
الجمال الكامن في النفس والإنسان والطبيعة أمثنا
المنشود ، وفي الإرادة المتقصة فينا ثمن هذا الأمل .

فإذا ما رغبنا في السعادة فما علينا إلا أن نفهم أنها
بين هذه الأشياء ثم نتجه إليها بقلوبنا ونغمرها
بالحب الذي لا يلبث أن يفيض علينا بأجمل
الاحساسات وأروعها .

ليس أوفر في الدنيا من السعادة ولا أرخص
من الثمن الذي تُشترى به . يئد أنها تعز علينا لأننا
لا نحس مكانها منا ونروح نفتقدها بين أشياء
لا وجود لها فيها ، وما نزال نسلك في هذا السبيل
الطرق الوعرة إلى أن يصيبنا الأعياء ، فلا نحن
نصل إلى ما كنا نريد ، ولا نحن إذا وصلنا إليه نجد
فيه السعادة التي توهمناها فيه .

محال أن يكون في اللباس الأنيق أو البناء الفخم
سعادة الإنسان . كل ما كان من صنعنا لا يبهشنا ،
لأننا ونحن جزء من الطبيعة ، لا يؤثر فينا إلا ما كان

من صنع الطبيعة . وكل ما لا يبهتنا غير قادر
على التغلغل إلى أعماق نفوسنا وإشعارها بحرارة
التمتع ولذع السرور الجميل .

فجمال الطبيعة ، وجمال الإنسان الذى هو بعض
الطبيعة ، وجمال النفس التى هى بعض الإنسان ،
وما انحدر عن هذا الجمال من هواجس وأحلام
مستحبة ، هو السر الذى تتقمص فيه كل سعادتنا .
فدعينا يا حبيبتى من هذه المدنية الصاخبة ، وهيا
نعيش هناك فى الغابات والصحارى ، فإن فى
نفسى وفى الطبيعة التى سوف تضمنا ، تكمن السعادة
التي تعبنا فى البحث عنها .

آمالنا بين أيدينا ، وثمنها كامنٌ فىنا . فهي أقرب
ما تكون منا إذا أحسسنا بها . وهى أبعد ما تكون
عنا إذا تغافلنا عنها .

الطبيعة

يلوح لى أن الحيوان أكثر توفيقاً منا فى
الحصول على السعادة . ذلك أنه يلتمسها من اتجاه
فطرته فلا يلبث أن يفوز بها . أمّا نحن فتنعamy عن
حقيقة موضعها ، ونروح نفترضها فى أشياء لا صلة
لها بها ، ثم نتطلق وراء هذه الفروض الخاطئة فما
نزال نهبطها من نشاطنا ووقتنا إلى أن نحسّ الخيبة
أخيراً بعد أن تكون حياتنا قد قاربت النهاية .

لذلك فأتى أهيب بالبشرية أن تعود إلى طبيعتها ،
لأنه ليس فى وسع هذه المظاهر المفتعلة أن تجيب
على نزعات الإنسان التى تحدد دون سواها ماهية
سعادته ومكانها من الـكون .

وليس معنى ذلك أن نعود إلى همجيتنا
الأولى، وإنما أن تكون الحضارة التي نرتضيها قد
تطورت في البداية عن أصل يلتئم مع طبيعتنا ،
كي يتاح لها أن تحمل معها — مهما غيّر منها التطور —
أثر هذه الطبيعة الذي يسبغ عليها خاصية الانسجام .
فسلوكننا يجب أن يكون مزيجاً من التفهق والتقدم ،
فتفقه لنصل إلى أصول الأشياء ، حتى إذا ما وصلنا
إليها تقدمنا بها فولدنا منها صورة الحضارة التي
نصبو إليها .

عندما استرسل رجال الفكر في نشاطهم ،
حصروا عقولهم في دوائر أبحاثهم الضيقة ، ولم
يطلقوها بحيث تتصل أولاً وقبل كل شيء بالغرض
الاسمي من الحياة ، فكانت النتيجة أن أفلت منهم
هذا الغرض ، فأتوا لنا بأشياء عجيبة في ذاتها

ولكنها لا تتفق البتة مع الغاية من الحياة . حوّلوا
الحياة — وقيمتها في أن تكون معنوية — إلى شئ
مادي وأبدوا في ذلك مهارة فائقة ، ولكنهم قبل
أن يسترسلوا في سخافتهم لم يفكروا فيما إذا كان
الأوفق للإنسان أن يقطع صلاته بنفسه وبالطبيعة
وأن يحدد سجاياه الفطرية التي لا يُعَدُّ شيئاً
بدونها ، أم أنه يسير في الاتجاه الذي تعينه له تلك
السجاياء .

لا جدال في أن السيارة أسرع من الحصان ،
ولكن اية قيمة في هذا ! إن قِيمَ الأشياء نسبية ،
فقيمة السرعة لا تظهر إلاّ في ظل الحضارة الحالية .
لأنها — وهي ضربٌ من الشذوذ — كان لابد أن
ينضم إلى سائر حالات الشذوذ التي تتألف منها
الحضارة نفسها . فاطراد الخطأ في الشئ الخاطئ .

أصلاً لازمٌ ليوَقَّر فيه الأنسجام الذي يحفظ كيانه .
بل إن السرعة غير مجدية في اقتصاد الزمن ، لأن
الوقت الذي توفره لنا يضيع في تَبَعُثِ أفكارنا
بالمشاغل الجمة ، فتبدو الحياةُ في نظرنا أقصر مما
كانت .

فإذا ما نحن أنكرنا الحضارة الحالية بكافة
تفاصيلها وأقننا بدلاً منها حضارة أخرى تتمشى
مع طبيعة الإنسان ، فسرعان ما تنكشف لنا القيمُ
الحقيقية لهذه السخافات ، وعندئذ تبدو لنا الأشياء
الجديرة بالقيمة حقاً .

إن هذه الحضارة بما تتَّسِمُ به من طابع
مادىٍّ مَسَخِ آدمية الإنسان وجعل منه كائناً
ميكانيكياً سخيلاً ، لا ينتظر منها أن تحقق سعادته .
ولأن لا أعتبرها أكثر من أنها فترة انحلالٍ مرت

بالإنسانية ، سوف تعقبها بلا ريب موجة
« رومانتيكية » يعيش فيها الإنسان حياةً أقرب
ما تكون إلى الشعر ، وذلك عندما تنبه فيه طبيعته
الفذة بعد أن يستفزها إرهاق المادية .

فها يا حبيبتى نهجر المدن الصاخبة إلى حيث
نرعى الغنم سوياً في البرارى ، ونُطْلِق لسجايانا بين
أحضان الطبيعة العنان .

٤٥

العدالة

طغى في هذا العصر الصالحُ العام على العدالة
حتى تحطّم الفردُ أو أُرْشِك . ولا قيمة للصالح
العام ما لم تكن العدالة غايته ، فنحن عندما نبتغي
الصالح للجماعة لا نبتغيه لذاتها لأنها من حيث هي

لا تمنينا في شيء ، وإنما نبتغيه لكي يؤول منها في
النهاية إلينا . فما الجماعة إلا قسمة^١ تنتهي إليها جهود
الأفراد وأمانهم لتعود فتجدر إليهم في شكل
ثمر ومُنَى .

أمران يجب ألا يغيبا عن عين الرجل
الاجتماعي : الصالح العام والإنصاف . لأن الأول
يعنى بالأفراد ككتلة اجتماعية ، والثاني يعنى بهم
كوحدة لها . فالصالح العام يستخلص من
الجماعة مزيَّتها ، والإنصاف يرد هذه المزية إليها .
وبعبارة أخرى أن الأول يفسر علة قيام الجماعة ،
والثاني يفسر علة بقائها ، أى لمَ هي وُلدت ، ثم
لمَ هي تعيش .

وبدون واحدٍ من هذين الأمرين قد يقوم
للجماعة وجود ككائن مادي ، ولكنها إذ ذاك تنعدم

ككائن معنوى ، أي أن خلاياها وإن جمعتها
وحدة المكان تفقد وحدة الغاية والإحساس
والفكر . ومثل هذه الجماعة إنما تأخذ شكل
القطيع ، لأنها تفقد الصبغة الإنسانية التي تسبغ عليها
كل قيمتها .

فهيأ يا حبيبتى نفرّ من هذه المدنية الكاذبة
التي ضاع فيها الفرد ، في حين أغدقت المزايا على
جماعة لا إحساس في الواقع لها ولا شيء في الأمر
يعنيها .

أية قيمة لعمرى لنظام يحقق الصالح العام
للمجموع ثم لا يسحب هذا الصالح في النهاية على
الأفراد !

الوجدان

الوجدان هو بقية الحب العالمي الذي كان فيما
مضى يربط كلَّ ذرة في الكون بالآخرى ، والذي
استحال فينا ، مع تفكك الكون نسيئاً ، إلى ما يشبه
العقل الباطن .

فهو شعورٌ من الإنسان بأنه جزء لا يتجزأ
من الكون ، وأنه عنصر شائع فيه غير مستقل بذاته
عنه ، ومن مِمَّ فإن حبه لنفسه لا بد أن ينسحب
ضمناً وعلى الرغم منه إلى الكون جميعه .

فهذا الحب العالمي كامنٌ إذن فينا بالطبيعة .
وهو محتفٍ وراء إحساسنا الواعي ، ولكنه ما يزال
له علينا قوة الأيحاء . وفي وسعنا إذا نحن أتينا له

الفرصة لذلك ، أن نوقظه ونجعله يطغى على
وعينا .

ونموّ الوجدان يصحبه حتماً تضاؤلٌ في الانانية
والقومية ، لأنه يوقظ في الإنسان الحب الذي يهَبُ
نفسه للعالم كله . فالوطنية فضيلة فقط من حيث
القياس النسبي الذي يبنى حكمه طبقاً لاعتبارات
الزمان والمكان ، ولكنها رذيلة دون ريب إذا نحن
قسناها بالفضيلة المطلقة . وما من إنسانٍ أو أمة
بلغت شأواً من المدنية إلاّ وحلّ الحب للعالم منها
حل حب الذات والوطن .

ووجدان الأفراد والأمم ينزع بها أبداً إلى هذا
الاتجاه عن طريق الأيحاء ، ولكنه يصطدم بالتقاليد
التي ما يلبث أن يذلها مع الزمن . وليست عصبية
الأمم لعبةً سياسيةً بقدر ما هي صدى عقل البشرية

الباطن الذى ما ينفك يوحى إليها بتحقيق فكرة
الحب العالمى . بل هى لعبة الضمير ، خدع بها رجال
السياسة ، فاستطاع أن يسخرهم فى تحقيق أحلامه
بما راحوا يحسبون فيه خدمة لأنانيتهم . هى مناورة
بين الضمير والأنانية انتصر فيها الضمير أو
أوشك .

والسلبية التى يحارب بها « غاندى » الانكليز
ليست إلا حركة وجدانية ، لأنها ترمى إلى التأثير
على المستبد من طريق إيقاظ وجدانه بتصوير الخطر
المهدق بأخيه الإنسان تصويراً ينبه فيه حبه القديم
له ، ومن ثمَّ يحمله ذلك على التضحية بأنانيته لدفع
المكروه عن أخيه .

ولأنه لنى وسعنا إذا نحن قوينا شعورنا بما
ننطوى عليه من حب طبيعى للكرون ، أن نستعيض

بالوجدان عن الشرائع ، وأن نحطم الجماعة القائمة
على القوانين ، ونعيش في فوضى ولكنها تكون
أقرب مما نحن فيه الآن الى النظام .

كلما كثرت القوانين في الجماعة كلما دل ذلك
على انحطاطها ، لأن الحدّ من حرية الفرد وإخضاعه
إلى تفاصيل دقيقة من النظام يذهب بمعنويته ويجعله
وسط الجماعة التي يعيش فيها أشبه شيء بمجرد آلة
في مصنع . فالنظام الاشتراكي الذي رُمى إلى صيانة
حقوق الفرد من طريق المبالغة في توثيق العلاقة
القانونية بينه وبين الجماعة ، نظام يسلب بنفسه الفائدة
المرجوة منه .

كذلك النظم الأخرى ليست على شيء كثير
من الصلاحية ، لأنها وإن كانت تترك الناس إلى
حد ما أحراراً ، إلا أنها لا تخلصهم من الانانية

التي تترك المجال للظلم أوسع .

وهنا تساءل ما هو النظام الصالح إذن للجمتمع ؟
في رأي أنه النظام الذي يستعيز بالوجدان عن
القوانين في تحقيق أحلام الاشتراكية ويجعل من
العدالة سجية لا قانونا . وهذه هي وجهة التربية
الحقة التي ينبغي أن نعد لها الأجيال القادمة من
الآن .

أمّا النظم التي تستعيز بالقانون عن الوجدان في
كل شيء كالنظام الاشتراكي ، والنظم التي تقوم على
الاعتداد بالفوارق القومية والدينية وتعزل الأمة
الواحدة عن بقية العالم « كالفاشية » و « النازية » ،
فهي نظم فاسدة تتنافى مع المثل العليا
للحياة .

فالكلمة إذن لما سيكون عليه المستقبل ، بين

شفق الضمير . فهو الذي سيتولى في هذه المرة تكيف
الحضارة المقبلة . وفي سلبية « غاندي » وعالمية « عصبة
الأمم » ، شيء من بؤادر ذلك النظام .

ولكن ماذا عساه يكون مصير الإنسان إذا طغى
فيه الوجدانُ على المحسوس فأنكشف له الغيب ؟
إنه قد يستحيل شيئاً معنوياً ، وإذ ذاك تستحيل
الحياةُ غيباً والأرضُ سماءً . ثم يقوَى الحبُّ
بين وحدات الكون فيجمع بينها ثانية وبذا تندمج
الأرضُ في غيرها من العوالم وتقوم قيامة
الدنيا .

الحب إذن بعض الضمير ، فلمَ يا حبيبتى يلومنى
العذال على أننى وهبتُ ضميراً فأحببتك !

الفكرة

سوف نضل يا حبيبتى نعلم الناس الحياة
ولكن على غير جدوى . إنهم يرموننا بالجنون
لا لشيء إلا لأن خيالنا يسبق حياتهم فيبدو في
نظرهم خبلاً .

ولكن يجب أن يسبق خيالنا حياتنا ، كي يتسنى
لنا دائماً أن نقفز بحياتنا إلى حيث يكون خيالنا ،
وبذا نسير بالإنسانية إلى الأمام .

فلم لا نوطن خيالنا إذن على أن يُبدع لنا
أبداً صورة الحياة الجديدة التي ينبغي أن نحياها في
غدنا ، حتى لا تقف حياتنا بوقوف خيالنا !

إنه يكون في مقدورنا دائماً أن نحقق المثل الأعلى

من الحياة إذا حرصنا على أن يكون ماثلاً في
خيالنا ، فإذا نحن فقدناه خيالاً فلا بد أننا نفقده
حقيقة .

وعداة الجمهور للفكرة الجديدة دائمة شائع قديم
فيه . وسببه غالباً لا يرجع إلى عيب في الفكرة ،
وإنما إلى قصور في عقله المحدود عن إدراك
قيمتها .

ولكن لا قيمة للفكرة إلا متى كانت من السمو
بحيث ترتفع بالجمهور إلى مستواها ، لا أن تكون
من الانحطاط بحيث تهبط بنفسها إلى مستوى
الجمهور .

فالمبالغة في الاحتفاظ بالأمر الواقع دون
ما مراعاة لقيمتها الذاتية ، إساءة إلى الحياة التي
تطالبنا أبدأ بالوصول بها إلى الكمال ، الذي وإن

يكن ليس في وسع جيل واحد أن يدركه ، إلا أن
في وسع الأجيال المتعاقبة أن تحققه على
التدريج .

وكون الكمال شيئاً لا نهاية له لا يعفينا من
ضرورة السعي المتواصل لتحقيقه . لأن هذا التحقيق
هو وحده الذى يخلق من الكمال صورته الجديدة
ثم يلهمنا مواصلة السير نحوها ، وبذا تكتسب
حياتنا صفة السعي المطرد .

وإنه لفي إمكان الجمهور إذا أدرك أن ما هو
اليوم رأى الأغلبية كان بالأمس رأى الأقلية ،
أن يدرك أن ما هو اليوم رأى الأقلية قد يكون في
الغد رأى الأغلبية ، وإذن لاستقبل الفكرة الجديدة
برباطة جأش أكثر مما يقابلها به الآن .

إن الهوة بين عقلية العبقري وعقلية الجمهور هي

وحدها التي تشوه جلال الفكرة العظيمة ، ولكن
أليس من الممكن أن يقرب الحلم والآنسة بين ما باعد
بينه تفاوت الأذهان !

ما أجلّ الخدمة التي يسديها الراعي إليك أيها
القطيع الضال ، فلم لا يكون جزاؤك له من جنس
صنيعه إليك ! يلوح لي أنك في آنٍ واحد جاهلٌ
وجحود .

٤٨

الحرب

لم هكذا تخشين الحرب يا حبيبتى ، وتكسو
وجهك الفاتن الهمومُ كلما تبينتِ شبحها مقبلاً
على الأبواب ! دعى نارها الآن تستعركيما تستنفد
نفسها فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة .

لأنما تحمِلُ الأزماتُ في نفسها حلَّها .
فشدَّتْها تنبه إليها القومَ الغافلين ، وفي آن واحد
تفقدُهم رشدهم . لذلك فهم يرونها بعين الرجل
البصير ، ويحاربونها بعزيمة الرجل الموتور . فكثيراً
ما يكون الأغرار في الظلم سبيلاً إلى العدل ،
والإمعان في الاستعباد وسيلة إلى الحرية . وهذه
المتناقضات التي تتوالد من بعضها البعض تكسب
حياتنا النشاط الذي يحمل هو الآخر في مدلوله
معنى الحياة .

كانت الحرب وما تزال أعضل مرض اجتماعي
عرفه التاريخ . وكثيرةٌ ما هي المحاولات التي بذلت
لمنعها ، والتي كان آخرها « ميثاق بريان - كيلوج »
وأهمها « عصبة الأمم » . وكثيرةٌ ما هي أيضاً
المقدمات التي تنبئ بقرب زوالها ، فسرعة

المواصلات ، وتبادل استعمال اللغات والمخترعات ،
وارتقاء الوجدان العالمى ، ونشاط الرأي العام
الدولى ، كل هذا يسهل على الشعوب المتنافرة سبيل
التفاهم ، ويساعد على محو الفوارق بين القوميات
والجنسيات المختلفة . ومتى تمّ لهذه الفوارق أن
تزول فقد تمّ الجول لتأليف دولة عالمية تنضوي تحت
لوائها سائر الدول وإذا ذاك لا يكون هناك محل
للحرب .

كل هذا جميل ، ولكن بالغة ما بلغت هذه
النبؤات وتلك المحاولات ، فهي لن تفلح فى القضاء
على الحرب بقدر ما ستفلح فى ذلك الحرب نفسها ،
والحرب المقبلة بالذات . ذلك أن ويلات الحروب
فيما مضى كانت قاصرة إلى حد ما على الجنود ،
ومن ثمّ كانت إلى حد ما محتملة . أما الآن وقد

تطورت الحرب إلى حرب طيارات وغازات فإن
بلاؤها غير المحدود سيعم كافة الشعب ، وإذ ذاك
سيجد رجال السلطة المدنية أن الاسترسال في التغرير
برجال الجندية وتسخيرهم في الحروب لم يعد بعد
بالأمر الهين ولا السليم العاقبة ، لأن إعلان الحرب
سيكون معناه أن كل فرد من أفراد الدولة يجب أن
يكون جندياً مباشراً فيها .

فضلاً عن ذلك فإن الحرب ستكون من
الخطورة بحيث يصبح في مقدورها أن تكتسح
الحضارة إن لم يكن البشرية بأجمعها . ومن هنا
ستتضامن جميع الدول — إن مخنارة أو مكرهة —
للدفاع عن كيائها حيال الحرب التي ستقلب عندئذ
عدواً مشتركاً للجميع بعد أن كانت أداة لأرواء غليل
العداوات بينها .

من هذا وذاك يتضح أن الحرب إذ تعمل على
بلوغ أوجها إنما تقتل نفسها بنفسها . فالحرب الآن
تنتحر ، وسيكون هذا الانتحار هو الأول من نوعه
الذي ستصفق له البشرية استحسانا . شدة ما يجب
أن نرغب إذن في أن تعجل الحرب القادمة بالمجي .
كما يُسَدَّل على مأساتها الطويلة ستارُ الختام ،
بعد أن تكون قد أَلقت على البشرية درساً قاسياً
سوف يشيها بلا شك وإلى الأبد إلى رشدّها . هذه
البشرية التي يلوح لى أنها من الحمّاقة بحيث أنها
لا ترتدع حتى تعاقب وترهق بالعقاب .

٤٩

المساواة

شدة ما يغبطني يا حبيبي أنك من النبل بحيث

تساوين في المعاملة بين الناس كافةً على اختلاف
حرفهم !

إن مبدأ تقسيم العمل ضرورةً اجتماعيةً حتمتها
طبيعة الجماعة ذاتها ، كما أنه وُضع لمصلحة
الجماعة .

لذلك لا ينبغي أن يتحمل الفردُ أعباءً خاصةً
ما بسبب نوع العمل الذي يقع في نصيبه ، متى
كانت الجماعة هي التي فرضت عليه هذا النصيب ،
ومتى كان هذا الفرض في مصلحتها هي .

وإلاّ فلو فرضنا أن الأفراد كافةً تنحّوا عن
الأعمال التي تجرُّ وراءها أعباء خاصة ، فأن ثمةَ ثغرةً
كبيرة في الحاجات البشرية تظل مفتوحة .

كما أنه ليس من العدالة أن تضطهد الجماعة فرداً

بسبب عملٍ كان لابد إن لم يقع في نصيبه أن يقع في نصيب أحد .

ما انطوى نظام الكون على ظلم ولكنّ الناس هم الذين بعضهم يظلمون. والذي يتأمل الكتلة البشرية يجد أن تسعاً وتسعين في المائة من الناس أشقياء لأن الواحد في المائة الذي تبقى قد سامهم العسف والعذاب .

حقاً إن وجدان العالم الآن لا يملأ فراغ جسمه .

٥٠

الفراغ

أنا إن آثرتُ على العمل الفراغ فلأن الفراغ هو الغاية من العمل . لأنني بعد أن أعدّ حياتي

من ثمرة عملٍ أحتاج إلى وقت من الفراغ لأشعر
فيه بها . فالإحساس بالحياة هو الحياة ، لأن الوجود
نسبيٌّ للإنسان ، فحتى يُعتبر شيء ما موجوداً في
نظره لابد أن يقترن وجوده بشعور منه بذلك .

فأنا إذ أبذل في العمل بعض نفسي فلن أبقى
في النهاية على نفسي . وإذا أبقى عليها فلن أشعر
بها ، وإلا فما قيمة وجودي إذا لم يحمل في نفسه
الاحساس به ! إن الذين يرهقون أنفسهم بالعمل
يعيشون أقل من عمرهم ، لأنهم يعبرون الحياة
كما يعبر النائمُ الحلم الغامض القصير لا أكثر .

على أن الفراغ لا يفترض حتما الكسل ، لأنه في
وسعي أن أشغله بغير العمل فأجني منه لهما مستحبات ،
أما الكسل فهو ألاّ أشغل الفراغ بشيء .

فغايتي من الحياة التي يجب ألاّ تتلاشى في

رغبتي في العمل الذي ليس إلا سبيلا إليها ، هي أن
أخلو إلى نفسي فأناجيه وأسر غورها وأكشف
عن أسرارها وأبين مواضع الفتنة فيها . وأن أحكم
صلتي بالكون وما اشتمل عليه من كائنات غير
محدودة ، فأمزج روحي بروحه وأبادله الحب
والعطف والولاء . وأن أكون دائب التفكير في
ماضي وحاضري ومستقبلي كي أصل حلقات تاريخي
وأحس بوحدة حياتي . وأن أتذوق كل ما أصبو
إليه من جمال وفن ورياضة وفكاهة لاؤدى واجبي
نحو نفسي وأحقق الغرض من وجودي .

فلئن أخذت من عملي لفراغي ، فما ذلك
يا حبيبتى لأنى بليد ، وإنما لأنى لا أريد أن أكون
أحمق .

فرصة العمل

لم نلوم هذا المتسول العاقل ، ولا نلوم الهيئة
الاجتماعية لأنها لم تقدم له عملاً !

إن الفرد كما يساهم في ثمرات الإنتاج قد
تضامن مع الجماعة . ولكن لما كانت ثمرات الإنتاج
لا توزع إلا على من يشترك في العمل الذي يأتي
بها ، فأن حق الفرد في المساهمة فيها لن يولد إلا إذا
ساهم أيضاً في العمل . فالجماعة من جهة تحتم على الفرد
أن يساهم في العمل كما يحق له أن يساهم في التوزيع ،
كما أن الفرد من جهة أخرى كما يتسنى له أن يساهم
في التوزيع يحتم على الجماعة أن تدعه يساهم في
العمل .

فمن ذلك نرى أن التضامن الاقتصادي للأفراد
يتولد عنه واجبان ، واجبٌ على الفرد وهو أن
يعمل ، وواجبٌ على الجماعة وهو أن تدعه يعمل .
والأول يفسر قبول الجماعة إياه كمساهم في ثمرات
الانتاج ، والثاني يفسر قبوله هو الانضمام إليها .
والخلاصة أن الفرد ليس هو فقط الملزم بأن
يتقدم للعمل ، وإنما الجماعة أيضاً ملزمة بأن تتقبل
منه ذلك .

يترتب على هذا أنه إذا حدث أن بعض الأفراد
— طمعاً في استزادة أرباحهم — اختصوا أنفسهم
بنصيبٍ مبالغٍ فيه من العمل ، فاغتصبوا بذلك
لأنفسهم بعض فرص العمل من غيرهم ، ثم سكتت
الجماعة عن ذلك ، فأنها تكون قد قصّرت في
واجبها إزاء من وقع عليهم الاغتصاب .

فالجماعة يتعين عليها إذن أن تشرف على توزيع
فرص العمل بين الأفراد ، لأن اغتصاب فرص
العمل إن هو في الواقع إلا اغتصاب ثمرات الانتاج
التي هي نتيجته ، فحماية الثانية يصبح لغوا إذا لم تسبقه
حماية الأولى .

وإذا كان من حق الجماعة أن تحمي للأفراد
ثمرات انتاجهم ، فما من أحد ينكر عليها حقها في حماية
العمل الذي هو موجد لها . وحقوق الجماعة هي لها
بمثابة الواجبات لأنها إذ تهمل في التمسك بها إنما
تفوت مصالح الأفراد المستولة قبلكم . إن الأفراد
ما تضامنوا إلا ليعيشوا ، فيجب أن نكفل لهم العيش
كي يظلوا متضامنين .

حقيقة إن توزيع فرص العمل على الأفراد كافة
يتبعه انخفاض في منسوب ساعات العمل للفرد

الواحد ، وبالتالي في ربحه . ولكنّ هذا الانخفاض
سيكون شاملاً ، لأنه لن يكون مقصوراً على طائفة
دون أخرى إلا حينما يكون العمل مركّزاً في يد
هذه ومنعدماً من يد تلك . والفقر إذا عمّ تجرّد
عن صفته لأنه — وهو نسيء — لا يُتصور وجوده
إلا إذا قورن بحالة غنى . فالمساواة في الفقر غنى ،
كما أن المساواة في الظلم عدل .

فضلاً عن أنه خير للجماعة أن تعيش في حالة
متوسطة من أن يكون نصفها أثرياء ونصفها عاطلين ،
لأن معنى هذا التقسيم أيضاً أن نصفها مهددون ونصفها
أشقياء .

على أنه مهما ربحتنا من ثرائنا فلا بد أننا كبشرٍ
نشعر ولو من طرف عقلنا الباطن بشيء من تأنيب
الضمير على اغتصاب حقوق إخواننا في الإنسانية .

وهذا الشعور وحده كفيلاً بأن يقوّض كل السعادة
الموهومة التي يزيّفها لنا ثراؤنا .

ها أنا أعطى يا حبيبتى هذا العاطل الذى يطارده
الناسُ ثمنَ الحلوى التي كنت سأتشترىها لك . أمّا
أنتِ ، فيكفى أن يكون لك قلبى .

٥٢

المزوجة

لكى نظل حبيبين ، يجب ألاّ نصبح زوجين .
لأننا إنْ أصبحنا زوجين ، فسوف لا نظل
حبيبين .

أنا وإنْ أكن ركّزتُ فيك هواي ما أزال حُرّاً
العاطفة . أنزع أبدأ إلى استقبال الجديد من الجمال

وأفتح له قلبي أينما كان . والجمال الفرد وإن تنوّع
في مظاهره لن يتجدد . ففي وسع العيون السوداء أن
تبعث من المعاني ما لا حدّ له ، ولكنها لن تكون
قادرة على أن تستعير من العيون الزرقاء لونها .

والزواج لن يُتصور إلا في جوٍّ يسود فيه
تقييد العاطفة . لأن الزواج يفترض الأخلاص المؤبد ،
وهو ما لن أقوى عليه ، لأنه على فرض أنني تكلفت
الأخلاص الظاهري ، فأنتي في أعماق نفسي سوف
أستهي وأتطلع إلى الجمال المنبثّ هنا وهناك خارج
حدود زواجي ، ولذا فأنتي أخون ... أخون بعقلي .
ومن هنا تتضح الهوة السحيقة التي تفصل ما بين
الزواج وطبيعتي .

ولقد علمتنا الحوادث أنه حيثما وُجد بين طبيعة
الإنسان والنظام الذي يحكمه خلاف ، فأن واحداً

من الاثنين لابد أن يحطّم الآخر . فالانسجام بين
الانسان وقانونه لازمٌ لزومَ هذا الانسجام في
كل شيء .

بيد أن كل هذه الاعتبارات تتلاشى إذا نحن
ظللنا حبيبين ولم نتزوج . لأن الحرمان الذي يشوب
الحب يقوم مقام التجديد الذي تتطلبه حرية العاطفة ،
لأنه أبدأ يترك أمام الحبيب أسراراً في حبيبه لم
يكشفها بعد ، فهو من جهله بكنهه جماله يظل يستقبل
منه في كل يوم شيئاً جديداً .

٥٣

الزواج

ولكن ... ماذا علينا لو نتزوج ! إن التناقض
الذي تصطدم به الأنظمة في حياة الفرد يستحيل

انسجاماً في حياة الجماعة . حرية الفرد تؤدي إلى
الفوضى بينما الجماعة تشدد النظام .

وقد خُلِقَ الإنسان فرداً ولكن ليعيش داخل
جماعة . حياة الجماعة مكملةٌ لحياة الفرد ، والفردية
نفسها تنقوض بمجرد أن تنقوض الجماعة .

وما دامت هناك حياة أخرى تزامنا في حياتنا
الفردية وتكملها ، وهي حياة الجماعة ، فحال أن يكون
في طاقتنا أن نطلق الحرية لفرديتنا اللهم إلا في
الحدود التي تسمح بها هذه الجماعة فقط .

لذلك فما من بُدٍّ أن نضحى — إن طائعين
أو مكرهين — بجزء من هئائنا لنحتفظ بالجزء الباقي
منه ، بدلا من أن نطمع فيه كله فنفقده كله .

إن أطمانا الفردية لا تحمل في ذاتها ما يحققها ،

ولا بد لها من هدف تتفاعل معه لكي تنتج لنا
اللذة، وهذا الهدف هو الجماعة. ولكنّ هذا الهدف
هو نفسه من جهة أخرى أطماعٌ لسوانا تقف أطماعنا
منها موقف الهدف.

وعلى ذلك فإن أطماعنا الفردية يجب أن يتلاشى
نصفها في الهدف الذي تصوّب إليه لكي يعود إلينا
نصفها الآخر محقّقاً. وإلا فلو تشبّثنا بها كلها
فأخذنا من الجماعة ولم نعطيها، فأننا نحطم بذلك الجماعة
ونحطم معها الهدف، وإذا ذاك تستحيل أطماعنا
أحلاماً لا تلقى ما يحققها.

هيا بنا يا حبيبتى إذن نتزوج. وليمتّ حبنا
لتحيا الجماعة، ونحيا نحن معها.

حرية المرأة

إذا رُزقنا طفلةً فسوف ندعها حرة . ليس لنا
 — والمرأة إنسانٌ مثلنا — أن نتكر حقها في
 المساواة الاجتماعية بنا . وما من وجهٍ للفرقة بين
 حرية المرأة وحرية الرجل في الكَمِّ أو النوع
 ما دام المصدر الذي يتلقى عنه كل منهما حريته
 واحداً وهو صفة الإنسان .

وليس في معنى التضامن الاجتماعي الذي نقيده
 الحريات باسمه ما يسمح لنا بالحدِّ من حرية
 المرأة في أمر لا نحدُّ أيضاً من حرية الرجل منه .
 حقيقة أن الحدَّ من الحرية في ذاته أمرٌ لا مندوحة
 عنه لتنظيمها . ولكنه إذا لم يطرد بالنسبة للجميع

فأنه لا يلبث أن يفقد صفته كمنظّم لها ، لأنه
بسماحه لبعض الحريات بالطغيان على البعض الآخر
إنما يمهّد إلى الفوضى التي هي نقيضة النظام .

كما أن تقييد الحرية لن يكون مشروعاً إلا إذا
وُضع بحيث يتساوى الأفراد كافةً في تحمّل الأعباء
التي تترتب عليه . لأن الفرد إذ يقبل الاندماج في
الجماعة إنما يفعل ذلك على أساس أن يرجح منها بقدر
ما يخسر في سبيلها . فإذا هي لم تشأ أن تسلم بهذا
الأساس ابتداءً ، انتفت بذلك عِلَّةُ التضامن
الاجتماعي وفضّل الفرد أن يعيش مستقلاً . وهذا
الشعور هو في ذاته تصدّعٌ — وإن يكن معنوياً —
في بنية الجماعة .

ولا يبرر موقف الجماعة عندما تفرق بين أفرادها
في المعاملة ، أنها ترمى إلى تحقيق مصلحة لا يمكن إلا

أن تصيب فريقاً منها دون آخر . فصلحة الجماعة لن
تعنى الفرد إلا إذا وُضعت بحيث يمكنه أن يساهم
فيها . وكل نظام من شأنه أن يسمح لبعض الأمة
أن يستغل ابتداءً بعضها الآخر يقضى على مبررات
وجود ذلك البعض الآخر فيها .

إنما تقوم الجماعة على أساس التضامن
الاجتماعي . ومن مدلول التضامن الاجتماعي أن
تساوى الأفراد في كافة المزايا والأعباء التي هناك
دُخِلَ للجماعة فيها . فالجماعة التي لا تكفل لأفرادها
هذه المساواة ، إنما تفقد علة التضامن الاجتماعي ،
وبالتالي تفقد علة وجودها .

فنحن ، من غير أن نخلّ بروح الفكرة التي
تقوم عليها جماعتنا ، لا يسوغ لنا أن نضع قيوداً على
الحريات يتضح عند تطبيقها أنها تفرض ابتداءً

مستوى اجتماعيًا معيناً على المرأة أو تضعها في
مركز المغبونة فينا أو المحرومة من بعض فرص الحياة
المباحة لنا .

على أن تمتنع المرأة بالحرية مفيدة للمجتمع . لأن
انطلاقها معنا في الحياة يملؤها حيوية وبهجة ، وينبث
فيها الفضائل الخاملة التي نبعثها عندئذ لتتوسل بها إلى
تحقيق ميلنا الغريزي نحو اجتذابها . إن الجماعة التي
لا تنبث في أنحائها المرأة كالحديقة التي لا ينبت بين
أعشابها زهر .

٥٥

عمل المرأة

وسوف ندفع بابتنا إلى ميدان العمل ، وإلى
أختار لها من الأعمال أن تكون فنّانة .

لن تكون المرأة حرة إلا إذا اشتركت في العمل
العام واستقلت عن الرجل اقتصادياً . ذلك أن
عجز المرأة عن الكسب يجعلها تلجئ إلى الرجل في
إشباع حاجاتها الاقتصادية ، ومن ثمّ تصير عبدة
له من هذه الناحية . والاستبعاد الاقتصادي يجرّ إلى
الاستبعاد الاجتماعي ، لأن شخصية الإنسان المعنوية
إنما هي ظلٌّ أو صدّى لشخصيته المادية . فكل
ما يهدد الثانية فهو يهدد الأولى .

وليس ثمّة خوفٌ من هذا الاستقلال
الاقتصادي على الرابطة الزوجية التي ستظل رغم ذلك
مكفولةً بدوافع أُخَرَ أدبية وقلبية ، ولكنها دوافع
لا يخشى منها على حرية كلا الزوجين لأنها متبادلة ،
فهى تسلب من حرية كل منهما بقدر ما تعطيه من
حرية الآخر .

وليس لنا أن نستند في الحدّ من حرية المرأة
في العمل على أن ذلك يقابله أيضاً حدّ من حرية
الرجل يتمثّل في التزامه الانفاق عليها . لأن هذا
الالتزام هو في ذاته صورةٌ من استعباد الرجل
للرأة ، ما دام الانفاق من جانب الأول يفترض
مقابله الحاجة من جانب الثانية . فهذا الالتزام ليس
إلا مقدمةً لاستلاب حرية المرأة ، كما أنه في الوقت
نفسه نتيجةٌ له ، لأنه على فرض عودة الحرية إليها
وتمكّنها من الكسب فإن الانفاق عليها من الرجل
يصبح ولا محلّ له .

على أن تقسيم العمل على أن ينفرد الرجل بالعمل
العام وتنفرد المرأة بشئون البيت مجحفٌ بالمرأة ،
إذا لاحظنا أن الرجل في الوقت الذي يختار فيه لنفسه
القِسْمَ الذي يُغنيه عنها يترك لها القِسْمَ الذي

يفقرها إليه .

ومن جهة أخرى فإن العالم دائم العمل على بلوغ
مَثَلٍ أعلى قد جعل منه لنفسه غاية الغايات . فعدم
قيام المرأة بنصيبها من العمل فيه تضيقُ لنصف جهود
العالم الذى تؤلف المرأة نصفه . وتَخْلَى العالم
عن نصف جهوده يضاعف الوقت الذى يتعين عليه أن
يقطعه لكي يصل إلى هذا المَثَل ، وبالتالي يؤخر
البشرية نصف الطريق .

وأخيراً فإن طوارئ الحياة ذاتها توجب على
المرأة أن تُعِدَّ نفسها للعمل . إذ من النساء من
لا تصلح للزواج أو لا ترغب فيه . ومنهن من
تزوج ولكن لا يستقر لها الزواج لسبب
ما كَوَتْ زوجها أو انفصالها منه . هذه وتلك يجب
أن تتسلح بالعمل ، وتتسلح به من بدء الحياة ، لأنها

لا تدري بالضبط ما إذا كانت ستلتقي بهذه الطورى .
ولا متى ستلتقي بها .

٥٦

رؤيا

بالأمس أغفيتُ فرأيتُ فيما يرى النائم أننا
جالسين إلى بحيرةٍ مياها آسنة ، كأنما قد خيمَ
على سطحها الذى لا أثر لارتعاش الموج فيه سُباتٌ
عميق .

وقد قامت عليها شجرةٌ هائلة يدل منظرها المتهدم
على الهرم ، ويلوح من شجوب أوراقها الحزنُ
والآسى . وقد تكاثرتُ عليها الغربان التى ما فتئتُ
تروح وتغدو بين أغصانها فى إعياءٍ وضجر كأنما
تنوء بهنَّ ثقیل . وكانت تنبعث منها بين الحين

والآخر أصواتٌ خافتةٌ حزينة تشبه في لوعتها البكاء
وفي عمق نبراتهما الأنين .

وقد أحاطت بهذه البحيرة صحراء مترامية
الأطراف لا يدرك البصر مداها ، تقوم عليها
تلالٌ قد تبعثرت في أنحائها المغارات والكهوف
فاغرة أفواهها كأنها قبورٌ منبوذة أو سباع
جائعة .

ولم يكن هناك أثرٌ لنباتٍ أو حيوان اللهم
إلا ضبعٌ مريضٌ قد أسند ظهره إلى صخرة
مُلقاة ، وجعل يتلفَّتُ يُمْنَةً ويسرةً في بطءٍ
وتثاقُلٍ بنظراتٍ ملؤوها التبرُّمُ والانقباض .

وكان الوقت قبيلَ الغروب ، ومع ذلك فلم
يكن للشفق أثرٌ في الأفق . وكان الجو ملبّداً
بلونٍ أدكن يشبه في قتامه الغيم الذي يسبق

نزول المطر .

وكنْتُ في جِلْستِي دَائِمَ الأطراق إلى البحيرة
أحاول أن ألْخُظ في مائها الحياةَ على غير جدوى .
وكان لآنين الغربان صدىً يكاد ينهلع له قلبي ،
ولصفرة الأوراق رهبةٌ تبعث خاطرَ الفناء في
نفسى .

وكنْتُ كلما نظرتُ إليك يا حبيبتى ألفتك
واجمةً كالتمثال الصامت ، وقد تحجّرت عيناك
وتصلّبت أعضاؤك كأنما كنت تشخّصين إلى الغيب
وتحاولين عبثاً البحث عن شيء تائه فيه .

ثم حانت منى التفاتةً إلى إصبعي فأذا بجاتم
الخطوبة قد علاه الصدا ، وذهب عنه ذلك الوميض
الذى كان يتوهج فيه من قبل . فاستولى على إغراقٍ
طويل ، وكأني بنفسى أفتش فيها عن ذكرى سحيقة

غابت حوادثها عن عينيَّ وَمَضَتْ إلى حيث يمضي
كل شيء .

ثم قمنا فتبادلنا النظرات بعيون كأنها ما تعارفت
من قبل ، أو كأنما تُسَجِّعُ عليها من النسيان
حجابٌ كثيف . وسلكتُ طريقاً وسلكتِ آخر ،
ثم غاب الطيف عن منظرنا ونحن نشق طريقنا وسط
الصخور .

فصحوتُ من نومي وقد أخذ مني التشاؤمُ كلَّ
مأخذ ، لأننا نحن المحبين نلهم ما في الغيب بقوة
نفوسنا ، فترى المقدر الخافي كأنه حقيقة
ناصة .

ألم أقل لك يا حبيبي أن الحب عندما ينقلب
زواجاً يشتحر ! إنني أخشى أن يكون ذلك الذي

تمثّل لي في تلك الرؤيا المفرعة جنازةُ حبنا ...
فاللهمّ رحمتك !

٥٧

نسيانه

قد تحقّق الحلمُ المروعُ أو أوشك . بدا على
عينيك النسيانُ ودبَّ الفتورُ في قلبي . والتقينا ،
فلا العيونُ متعارفةٌ كعهدي بها ، ولا القلوبُ
خافقةٌ كما كانت .

فليت شعري هل كان حبنا سرّاً فسّرهُ الزواج
فلاشئ ، وأمنيةٌ حقّقها فماتت ! لكم
حدّرتنا هواجسنا الزواج ، فأبى حبنا وحكم
على نفسه بالموت . بل أبت علينا الطبيعة ، لأن
الطبيعةَ الدُّ أعداء الدوام . ومضتْ تزيّن لنا

شهواتنا أن نغرق فيها ، لكي نقضى بأنفسنا
عليها .

قلتُ لك ان قلبي يحدثني بأن الحب إذا دخله
الزواجُ قضى عليه ، وان الزواج إذا دخله الحبُ
لن يعيش فيه ، فما أصغيت لي ، ولا أصغيتُ
أنا لقلبي .

وها نحن الآن نشهد بأعيننا جنازةَ حبنا ،
وندفنه بأيدينا في مقبره الأخير . فما كان أغنانا
عن أن نقتل بأنفسنا أَحَبَّ الأشياء إلينا ، ثم
نبقى من بعدها نرتعد من منظرنا الآثم إلى
الأبد .

ليتنا الآن نعود كما كنا حبيبين ، يهتاجنا
الحرمانُ فيخلق فينا الغاية ، وتحلّق في سمائنا الغايةُ
فتغمرنا بالأحلام ! ولكن ، هيهات أن يتفتح للهوى

قلبٌ أغمض عينيه النسيان !

والآن يا حبيبتى وقد انتهى ما كان بيننا ،
فوداعاً ... وداعاً إلى الأبد ورحم الله عهداً كنّا
فيه حبيبين .

٥٨

الدوام

كل شئ على الأيام زائل . انقضى كل ما كان
وجنحت للرقاد صباية استبدت بالفؤاد دهرأ
فأقامت الدنيا وأقعدتها . وهضت كالحلم
أيام حدانا فيها موكب النيل ، وليال طالعنا
فيها وجه القمر . وعفت ، وعفت معها آثارنا ،
وما يزال النيل يشق مجراه وسط الحقول ، وما يزال
القمر يغمر بأشعته المروج المخضلة .

وعمّا قليلٍ تحين ساعتنا فنلحق بالذي مضى
من أيامنا ونذهب معها إلى حيث لا عود يُرجى ،
وسوف يظل النيل يجري كما كان ، والقمر يطلع
كعهده ، ليعيدا تمثيل المهزلة مع غيرنا .

إن التماس الدوام مستحيلٌ مع وجود الزمن .
فالزمن حركةٌ مطّردةٌ من الوجود والعدم يضيع
البقاء ما بينها . وما الإنسانُ إلا كميةٌ زمنيةٌ تفقد
نفسها على التوالي إلى أن تتلاشى أخيراً بالموت .

ولكن علامَ الجزعُ ، ولم يقلل من شأن
الحوادث عندنا أنها زائلة ! ما دمنا أنفسنا زائلين
فليس في وسعنا أن ندرك القيمة إلا في الشيء
الزائل . إننا نفرغ مع كل شيء ، وكل شيء يفرغ
معنا ، وهذا الانسجام الذي بيننا وبين الحوادث
يقوم لدينا مقام الدوام .

فهيّا لننطلق في سبيل البحث عن اللذة المؤقتة ،
ولنعيشُ للساعة التي نحن فيها . فقط ما السبيلُ إلى
التخلص من ذكرياتِ رسبتُ بقاياها بالفؤاد وما
يزال وخذوها يقضُ مضاجعنا بين الحين والحين ؟
لا سبيل . ومن هنا اتَّسَمَ الكونُ في أعيننا بطابع
الآسى ، وغلب على مزاجنا الحزنُ والحنين . أبهجُ
الأشياء وأقربها إلي المرح ، ترفُّها إلينا مشاعرنا في
إحساسٍ يشبه اللوعة ، ونفثاتٍ تشبه النحيب .

٥٩

الفن

أيُّ غبارٍ على الحب حتى راحت تضطهده
الناسُ وترميه بأقبح الصفات ! ورحت أنتِ
تجارينهم فيما يدعون كذباً وبهتاناً ، وتلحين على

في طلب الزواج خوف العار ، فكان أن أجبتك
إلى طلبك وأشرتُ معك يدي الأثيمة هذه في
قتل حيي !

أولا الحب كان يتاح لنا أن تذوق ما تذوقناه
من مُتَمَعٍ دونها نَعَمُ الخلود وأمانٍ دونها أحلامُ
الصبا ! ألولاه كان يمكن أن ينطق شاعرٌ بقصيدٍ ،
أو يشدو مُغَنٍّ بِنَغَمٍ ، أو يَخْطُ رسامٌ
لوحة !

يفتح الحبُّ مغاليقَ النفوس ويكشف عن
أسرارها الفاتنة ، فما تلبث أن تتفجّر علينا بناييع
فيّاضة ، ما أن تلتقي فينا بمزاج مصقول حتى يتولى
تنسيقها وتهذيبها ، ثم يهبها قوةَ الإفصاح عن
نفسها فتخرج للناس فتنا يسحر الألباب .

إن الحب نصفُ الفن ، والذوقُ المتّسق

نصفه الآخر . والفن خلاصة الروح ، والروح
خلاصة الوجود ، لأنها جزء من إرادة الله . لا جمال
في الدنيا ولا بهجة من غير حب . وإذا ما قدّر
لبقعة من الأرض أن تقفر منه ، طلعت عليها
الشمس ، ولكن غاب عنها نور الأله .

هي الحبّ هو أفوه هو لا بد منه ، ولم في بعض
الشر من فائدة ! يميناً لقد كنت في إلحاحك عليّ
مخطئة ، وكنت في إذعاني لك عجولاً ، ولكن ...
جلّ يا حبيبي من لا يخطئ .

٦٠

رقيقة

مرحة كالطائر روحها ، مؤحش كالسجن
جسمها . كلما همّ بالغناء قلبها لم يرجع صداه

صدرُها . وإذا حنَّتْ إلى الغاب نفسها لم يُعِنِها
على الطيران ريشُها .

ساءلتُ عقلي ما خُطِبُ الفُتاة وأى ذنبٍ
يا ترى ذنبُها؟ قال دميعةٌ كي ينفرد بالجمال غيرها .
آية الكون أن تميّز الأشياء أضدادُها .

قال قلبي ، إذنْ هي الفداء ، وليت شعري ما قيمة
الآيات إذا لم يشمل الناسَ خيرُها !

قال عقلي ، أراك ترقى لها فلم لا تحبّها؟ إذا
عدَلَ الإنسانُ انمَحى من الطبيعة ظلُّها .

قال قلبي ، ما يبدى أنا المسيّرُ في الكون
حبُّها . وأنا نأى ما أنا ، فكيف أضْحى بالنفس كما
أقبلها !

قال عقلي ، على أنها لا تستحق الرثاء أمّا

تراها نائمةً على القدر لا ينفك يجرى بالشكاية
دمعها !

قال قلبي ، إنك خاطئة فإلى تكوينها يرجع
خطوها . ولو أنصفت لأحلتك الأشفاق منك
محل لومها .

فصدقت قلبي . وكذبت عقلي .

٦١

٣

الفنانه

أحققتا قد نسيت دنيائى فنسيت معها الأمل
والحب ، وخذت فى نفسى الشهوات العاتية ما خلا
شهوتي إلى قى !

فيا مضى كانت الدنيا تفتنى ، وكانت مباهج

الحياة تأسر لي ، وتخلّفني ككفراشة حائرة
مبهوطة حَيَالٍ شعلَةٍ من نور . أمّا اليوم فلم أعد
أراها إلا كما أرى الحُلُم الغابر ، ولم يبق لها في
نفسى سوى ذكرياتٍ خامدة دفنتها في جانب مهمَلٍ
من فؤادى .

ولكن عَلامَ التضحية وماذا عساه يكون فنى
هذا الذى رضيت بأن أحطم دنيائى فى سبيله ! أية
قوة خارقة تلك التى جعلتني أميت فى نفسى شهواتي
الدنيوية ، وأستعيض عنها شهواتٍ أُخَرَ روحية
تنزع إلى الخلق والابتكار وترى السعادة فى الألم !
بل أية قدرة تكمن فى الفكرة فتجعلها تهيمن على
الارادة ، فإذا الارادة تهيمن على النفس ، وإذا
كل شئ — حتى الارادة والنفس — مسخَّرٌ
للفكرة !

يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الْفَنَانَ يَرَى أَنَّهُ الدُّنْيَا كُلُّهَا . وَعَلَى
ذَلِكَ فَمَا مِنْ بَأْسٍ عِنْدَهُ أَنْ يَضْحَى بِنَفْسِهِ مَا دَامَتْ
الدُّنْيَا بَاقِيَةً . وَهُوَ لَا يَبْدُ مُسْتَفِيدٌ مِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ .
مُسْتَفِيدٌ لَا بِذَاتِهِ الْمَحْدُودَةِ ، وَإِنَّمَا بِذَاتِهِ الْمُنْبَسِطَةِ
عَلَى الْكَوْنِ ، ذَاتَهُ الْكَامِنَةَ فِيهَا وَرَاءَ الذَّاتِ .

هُوَ يَحِبُّ الْحَيَاةَ . وَلِذَلِكَ هُوَ يَضْحَى بِنَفْسِهِ ،
بَلْ يَمُوتُ ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَخْدُمُ الْحَيَاةَ . وَهَذَا
حَقٌّ ، إِذْ كَيْفَ يُتَصَوَّرُ إِطْرَادُ الْحَيَاةِ إِذَا اتَّقَى
الْمَوْتَ ؟ قَلِمٌ لَا يَكُونُ فِيهِ نَزْعٌ إِلَى الْمَوْتِ مَا دَامَ
الْمَوْتُ عَنَصْرًا مِنْ عُنَاصِرِ الْحَيَاةِ !

وَبَعْدَ السَّنَا نَكْدٌ وَنَفْكَرٌ وَنَحْبٌ وَتَنَاسُلٌ ،
وَنَحْنُ إِنَّمَا نُوَدِّعُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْ هَذِهِ جَانِبًا مِنْ
حَيَاتِنَا ! إِنَّمَا لَا نَفْتَأُ نَنْزِعُ إِلَى الْخَائِقِ ، وَلَكِنْ
لَا يَكَادُ يَتِمُّ لَنَا ذَلِكَ حَتَّى نَمُوتَ ، لِأَنَّا نَكُونُ قَدْ

أودعنا أنفسنا في خلقنا . نحن نحب الحياة ،
ومن أجل ذلك قد أحببنا الموت .

الواقع أن الإنسان ليس وحدةً مستقلة تملك
ذاتها . وما كان الواحد منا في وقتٍ من
الأوقات ابن يومه ، وإنما هو موجة ورثت نفسها
من الأجيال ، وستورث نفسها للأجيال . فهو
ذرةٌ سابحة في الكون لا تدرى مكانها منه لأنها جزء
شائع فيه .

وهذا الشعور الذي يفسر مركزنا من الحياة
موجود في عقلنا الباطن ، وهو الذي يدفعنا إلى
الخدمة العامة والتضحية في سبيلها . وهو يقوى
عند الفنانين إلى حد أنه يكتسح أمامه ما عداه ، فما
يلبث الفنان أن يهب نفسه لهذا الشعور ، ثم يهب
هذا الشعور للحياة .

وإنّا لَنَعَجَبُ كيف يهب الفنانُ نفسهَ للدنيا
بينما الدنيا تفلت منه ! ولكنّ الواقع أنّ الدنيا
تفلت منه لتعود إليه ممثلاً في شخصها . وأن شهواته
قد تموت فيجحد الحب والمال والأسرة والذات ،
ولكن بعد أن تكون قد تذهبت فيه الشهوة التي
تتحكم في الشهوات ، شهوة الخلق . وشهوة الخلق
هذه كامنةٌ فينا لأننا نحن للبشر لسنا إلا بعضَ
الكون ، وما ينفكّ الكون — بأذن الله —
يخلق .

ولكن أليس من الأناية أن يضحي الفنانُ
بذويه في سبيل فكرته ؟ كلا ، لأنه إذا كانت كل
الأناية أن يؤثر الإنسان نفسه ، فأن من بعض
الأناية أن يؤثر غيره . فالفنان يتجاهل حدودَ
المكان والزمان ويتخطى القومية والأسرة بل

الذات وييسط نفسه على الإنسانية كلها . وهو
يذهب في ذلك إلى حد أنه يطوِّح بهذه النفس إلى
حيث تلتقى ببداية الإنسانية ونهايتها المجهولتين .
وبالاختصار أن الفنان يرى العالمية دينه .

وداعاً يا حبيبتي إلى حيث أودَّع كلَّ شيء .
وأفرغ إلى فنى . لقد سلاك القلبُ الذي جُنَّ
بكِ دهرأ ، ومضى الآن بمضى الزمان عصرُك .

٦٢

الشعور

كم من حقائق أومنُ بها ، يوحى إليَّ بها
شعوري ، وإن يكن يعجز عن إقامة الدليل عليها
عقلي ! فإذا عساه يا تُرى يكون ذلك الوحيُ الذي
نأبى إلا أن نكذِّبه فيأبى هو إلا أن تصدِّقَ

نبؤاته ا

ولكن عَلامَ العجبِ والنكرانِ وفي
احساساتنا الفدّة دليلُ روحانيتنا وما تنطوي عليه
من إلهامٍ ونور ! لكم يضلّلنا العقلُ المريبُ
فنشقى ، ولكننى ما أحسب أن بصيرتنا تخطئ .
ذلك أنها لن تُعوّل على منطق قد تفلت قضيته من
يديها وإنما على قوتها السماوية الخارقة التى تتمكّ
الحقائق من الغيب الذى ليس دونها وإياه حجابٌ ،
ثم تنقلها إلينا صادقةً بريئةً كما هى .

كثيراً ما يخدعنى منطقُ عقلى بما يخالف وحيّ
شعورى فأوشكُ أن أقنع متورّطاً ، ولكن سرعان
ما أثوب إلى نفسى فأكذبُ عقلى وأصدّق
شعورى . عقلى ! كم أعقُّ عقلى ! لأننى أرتاب
في عقلى .

السر

كلما قاربت الحياة النهاية تملكك الانسان
 رغبة في تفهم الكون الذي أصبح وشيك
 الاندماج فيه .

وما الحياة إلا كأس من الشراب تضع
 صوابنا ، فتقطع صلتنا بالكون إلى حين . ولما
 بعد الشوط الذي قطعناه منها وأخذ يدب فينا
 الفناء ، أشرفنا على الافاق وبدأنا نستأنف صلتنا
 بالكون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا ما استعدنا عقلنا نهائياً
 بالموت ، عدنا أوثق ما نكون صلة بالوجود ،
 وأعلم ما نكون بأسراره التي عشنا رهن
 احتجابها عنا .

وما المشاعرُ الخفيّة التي تتناوبنا وتزاحم في
تصوراتنا المحسوس ، إلا بقيةً من ذلك العقل ما تفتأ
تعاودنا بين الفينة والفينة ، وترجع في نفوسنا صدى
معرفتنا القديمة بالكون .

وكلما جرّد الإنسان نفسه عن عرّض الحياة ،
كلما أشرف على الأفاقة وطفى فيه الألهام على قوة
الأدراك للمحسوس ، فما يلبث أن ينكشف له السر
ويتمسكه اليقين بأنه جزء لا يتجزأ من الوجود ،
وأنّ ثمّة حبّاً عنيفاً متبادلاً يربطه وإياه .

فعَلَامَ الجزعِ إذن من الفناء ونحن ما نفنى
وإنما نستأنف وجودنا مع الكون حياتنا
سكّراتٍ تنتهى بأفاقة الموت .

المولى

متى يا رفاقي نلتقي في الغيب فتجمعنا الصُّدف
 التي أَلَفْتُ بيننا في الدنيا ! لقد رحلتم عني واحداً
 إثرَ واحدٍ وتركتموني نهباً لنار الحنين وحدي .
 أرى الحياةَ وقد أقفرتُ منكم غريبةً علىَّ ، وتراني
 وقد تَبَرَّمتُ بها غريباً عليها .

ما أكثر ما تجمعُ السماءُ نفوساً كانت بالأمس
 تحيا بيننا ! فيا قَدَّسَ اللهُ مكاناً أضحي للأرواح
 الزكية مراحاً ومغدى ! طَهَّرَتْ فيه من
 رجس المعاصي ، واستعاضت عن ظلمة الضلال
 بنور الهدى .

يا نفوساً شَفَّها الحرمانُ فغادرتُ الحياةَ

ظلمى ، ليت الذى اختارك إلى جواره يعوضك
ما فاتك فى الحياة من المنى ! وأنت يا نفس
عجلى فأن رفاقك الأبرار ليرقبون هناك فى لهفة
قدومك .

٦٥

المصير

فى أغلب القصص الغرامية التى يضعها الروائيون
يفترق الحبيبان دون أن يتزاوجا . وها نحن نرى
أن الخاتمة تكاد تكون واحدة فيما لو تم بينهما
الزواج .

ولمى لأذكر - وكأنى بهذا الحديث قد وقع
بالأمس - يوم التقينا لأول مرة تحت شجرة
الشوت الوارفة ، فقالت لى بصوت داعم ، وقد

تاهت عيناها كأنما انحصرتا في الغيب ، وأترى
يبقى حبنا إلى الأبد ! إن قلبي يحدثني — وأود أن
لا أصدق — أن ستفرق بيننا الأيام . .

لجمدت في مكاني ، وقد غشيتني سحابة من
الحزن لا أعرف مأتاها . وكان حبنا الموفق
يبعث في نفسي ما يشبه اليقين بأن يد الدهر لا يمكن
أن تمتد إليه ، وأن القدر قد خلع عليه من دون
الكائنات مزية الخلود . ولكن ثمة إحساس خفي
كان ينحدر إلى من أعماق هذا اليقين وينبؤني
بأن الأيام تخبي لنا ما ترتعد منه الفرائص ، فما
يلبث أن يضطرب اطمئنانى ويساورنى الخوف
والقلق .

وتعاقبت الأيام ، ومضينا نسترسل في أحلامنا
غير آبهين بما يبيته لنا المستقبل . وانقادت لنا

الظروف ، ولم يصطدم حبُّنا بصعوبة تُذكر . ثم
بلغ أقصى مناه بالزواج ، ولكنه لم يكد يستقر له
ذلك حتي أخذ يحتضر شيئاً فشيئاً إلى أن شاهدناه
بأعيننا يموت . فأذا بهذا الحب الجارف لم يكن
إلا موجة عارضة من موجات الشعور ، مرَّتْ
بالقلب ولبثت به إلى حين ثم اختفت كما تختفي الأمواج
في اليم .

إذا كان كَمَّةَ شَيْءٍ في الحياة دائم فأن الحب
يدوم . اختلفت الأسباب والنتائج واحدة .

ديسمبر سنة ١٩٤٣

نمرة الصحيفة	نمرة السطر مع احتساب الاسطر التي بها الارقام والعناوين	خطاه	صواب
٨	١	فِي	فِي
٩	٤	قُبْلَتُهُ	قُبْلَتِهِ
٩	٤	ونارُها	ونارِها
٩	٨	برهة	برهة
١٠	٤	فتبقيين	فتبقى
٢٥	١٢	حيالك	حيالك
٢٨	٥	فلانُس	فلانُس
٣١	١٢	اذن	أذن
٤٢	١١	مس	مس
٧٩	٥	المحبون	المحبين
١٣٩	٨	تجبة	تجبتها

٦٨	٩	فكأنه	فكأنه
١٢٥	١	نحوه	نحوه

